

كتاب الثقافة الجديدة



الهيئة العامة لقصور الثقافة

رسالة النوح

الشيخ محمد عبده

الشيخ الإمام محمد رشيد رضا

اهداءات ٢٠٠٠

اد. فتح الله خليفة
استاذ الفلسفة بأداب الإسكندرية

كتاب الثقافة الجديدة



الهيئة العامة لتطور الثقافة

رسالة النوح

تأليف

الرُّسْتَاذِ الْإِسْلَامِ

الشيخ محمد عبده

رضی اللہ عنہ

لجميعها بأذن الورثة معصياً لهاها على نسخة المؤلف وعلى جدول وضعه (رح)
لجميعها ، ومعلقا عليها تعليقات استناد بعضها منا في الدرس

السَّيِّدُ الْإِمَامُ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ

منشی مجاہد المنکزار

رحمه الله تعالى

قصہ ایسر

د. عاطف العراقي

استاذ الفلسفة العربية

كتاب الثقافة الجديدة
شهرية
الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
ورئيس التحرير
د. فوزى فهمى
رئيس التحرير التنفيذي
على أبو شادى
نائب رئيس التحرير
محمد كشيك
المشرف العام
سيد عواد
مدير التحرير
محمد الشربيني
سكرتير التحرير
حمدى أبو جليل

المراسلات باسم مدير التحرير
على العنوان التالى
١٦ شارع أمين سامى
القصر العينى - القاهرة
رقم بريدى ١١٥٦١

تصدير

لم يكن الشيخ محمد عبده كواحد من أعلام فكرنا العربي المعاصر، مهتما بدراسة المشكلات الحديثة والمعاصرة فحسب، بل إننا نجده بالدرجة الأولى واضعا نصب عينيه دراسة المشكلات التراثية القديمة. لقد قدم لنا العديد من الكتب والرسائل والتي تكشف عن اهتمام بالغ من جانبه بالمشكلات الكلامية والفلسفية. ومن بين تلك الكتب والرسائل، رسالة التوحيد .

إن هذه الرسالة تكشف عن خلفية دينية واضحة وبارزة، وهذا هو شأن علم الكلام والفرق الإسلامية. وكم وجدنا الشيخ محمد عبده ويحكم مناصبه الدينية على الأقل، مهتما بالدراسات القرآنية، مهتما بتفسير آيات القرآن الكريم، بالإضافة إلى دراساته المنطقية، ومن

بين ما قدمه لنا، تفسير سورة الفاتحة، وتفسير سورة العصر،
وتفسير جزء عم، والإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، وشرح
كتاب نهج البلاغة، وحاشية على شرح الدواني لكتاب العقائد
العضدية، والعقيدة المحمدية، وشرح كتاب البصائر النصيرية في
المنطق لعمر بن سهلان الساوي وترجمة لرسالة الرد على الدهريين
لجمال الدين الأفغاني.. إلى آخر تلك الكتب والرسائل والتي تدخل
في الإطار الديني من جهة، والإطار المنطقي من جهة أخرى، وإن
كان الإطار الديني هو الغالب على ما تركه لنا الشيخ الإمام.

قلنا إن رسالة التوحيد تكشف عن خلفية دينية عند محمد عبده،
وخلفية فلسفية أيضا. لقد نظر الكثيرون إلى الفلسفة الإسلامية على
أساس أنها يدخل في إطارها، علم الكلام، والتصوف أيضا،
بالإضافة بطبيعة الحال، آثار فلاسفة العرب ابتداء من الكندي في
المشرق العربي، وانتهاء بابن رشد آخر فلاسفة العرب، في المغرب
العربي.

وتتضمن الرسالة دراسات موجزة عن عديد من العناصر
والجوانب زادت عن مائتي عتصر ومبحث . ومن بين المباحث التي
نجدتها في هذه الرسالة، رسالة التوحيد، ما يلي .

- تاريخ علم التوحيد وموضوعه وتسميته.
- تاريخ علم العقائد ومنهج القرآن فيه.
- سنن الله في الخلق وتآخى الدين والعقل في الإسلام.
- مذاهب الفلسفة في الإسلام .
- أفعال العباد.
- المعجزة ودلالاتها على صدق الرسول وصفات الرسل.
- حاجة البشر إلى الرسالة.
- الوحي : تعريفه وكونه ممكن الوقوع.
- وظائف الرسل عليهم السلام.
- وظيفة الدين ووظيفة العقل والنسبة بينهما.
- رسالة محمد صلى الله عليه وسلم.
- الدين الإسلامى أو الإسلام.
- تقرير ثبوت النبوة بإعجاز القرآن.
- انتشار الإسلام بسرعة لم يعهد لها نظير في التاريخ وسببه.
- ويعرف الشيخ محمد عبده في الصفحات الأولى من رسالته، علم

التوحيد، قائلا .

التوحيد علم يبحث فيه عن وجود الله وما يجب أن يثبت له من صفات وما يجوز أن يوصف به وما يجب أن ينفي عنه، وعن الرسل لإثبات رسالتهم وما يجب أن يكونوا عليه وما يجوز أن ينسب إليهم وما يمتنع أن يلحق بهم. وأصل معنى التوحيد: الاعتقاد أن الله واحد لا شريك له . وسمى هذا العلم به تسمية له بأهم أجزائه، وهو إثبات الوحدة لله في الذات والفعل في خلق الأكوان، وأنه وحده مرجع كل كون ومنتهى كل قصد. وهذا المطلب كان الغاية العظمى من بعثة النبي صلى الله عليه وسلم كما تشهد به آيات الكتاب العزيز.

والدارس لرسالة التوحيد للشيخ محمد عبده، يدرك غزارة اطلاع صاحبها وبقة في التعبير عن الموضوعات التي اختارها مجالا للتحليل والدراسة. وإنه يتحدث عن العديد من الآراء، ويشير إلى الكثير من أسماء رجال علم الكلام، وأشهر الكتب التي تركوها لنا. كما يتحدث عن الفرق بين طبيعة علم الكلام وطبيعة الفكر الفلسفي، ويقول إن مذاهب الفلسفة كانت تستمد آراءها من الفكر المحض، ولم يكن من هم أهل النظر من الفلاسفة إلا تحصيل العلم والوفاء بما تندفع إليه رغبة العقل من كشف مجهول أو استكناه معقول.

ونلاحظ أن الشيخ محمد عبده يحاول الابتعاد عن التركيز على الخلافات الجدلية والتي ثارت بين رجال علم الكلام والفرق الإسلامية، كما أنه يلاحظ أن مما يساعدنا على الوثام دون الخصام والخلاف، الاعتماد على الاجتهاد والدليل أنه يقول في عبارة هامة - والذي علينا اعتقاده أن الدين الإسلامي دين توحيد في العقائد، لا دين تفريق في القواعد. العقل من أشد أعوانه والنقل من أقوى أركانه، وما وراء ذلك منزعات شياطين، وشهوات سنلاطين، والقرآن شاهد على كل بعمله، قاض عليه في صوابه وخطئه، الغاية من هذا العلم القيام فرض مجمع عليه وهو معرفة الله تعالى بصفاته الواجب ثبوتها له مع تنزيهه عما يتسحيل اتصافه به، والتصديق برسله على وجه اليقين الذي تطمئن به النفس اعتمادا على الدليل لا استرسالا مع التقليد، حسبما أرشدنا إليه الكتاب. فقد أمر بالنظر واستعمال العقل فيما بين أيدينا من ظواهر الكون وما يمكن النفوذ إليه من دقائقه، تحصيلا لليقين بما هدانا إليه، ونهانا عن التقليد مما حكى عن أحوال الأمم في الأخذ بما عليه أبائهم. وتبشيع ما كانوا عليه من ذلك، واستتباعه لهدم معتقداتهم وإمحاء وجودهم الملي، وحق ما قال، فإن التقليد كما يكون في الحق يأتي في الباطل، وكما يكون في

النافع يحصل فى الضرر، فهو مضلة يعذر فيها الحيوان، ولا تجمل بحال الإنسان.

هذا ما يقول به الشيخ محمد عبده فى موضع من رسالة التوحيد والعبارة تكشف عن نزعة توفيقية نجدها واضحة بارزة فى رسالته من أول صفحاتها حتى آخر الصفحات. ويمكننا القول بأن الشيخ محمد عبده ليس من خلال هذه الرسالة فحسب، فى سائر رسائله وكتبه التى اهتم من خلالها بدراسة علم الكلام، صاحب نزعة اعتزالية أشعرية ما تريديّة. إنّنا إذا حللنا آراءه فإننا سنجد ما نقول به واضحا وبارزا.

ورغم الجهد الذى قام به الشيخ محمد عبده فى رسالة التوحيد، إلا أن عرضه لبعض الآراء والأفكار كانت تحتاج من جانبه إلى وقفة نقدية أكثر عمقا وتفصيلا، كما أن حديثه عن الفلاسفة، فلاسفة العرب، جاء مختزلا، وشابه النقص بوجه عام، بالإضافة إلى أننا نجد الشيخ يلجأ إلى التعميمات أحيانا، وهذه التعميمات لها أضرارها الفكرية والمنهجية. وإذا عرض الشيخ محمد عبده لرأى من الآراء، فإنه يكون غالبا عليه التركيز على الرأى الذى يؤمن به، دون الرأى الذى يختلف معه. ومعنى هذا أنه يسلط الأضواء على الرأى

الذى يميل إليه، ويجعل الأضواء خافتة أو شاحبة بالنسبة للآراء
الأخرى. ولعل مما أوقعه فى ذلك طبيعة المنهج الجدلى الكلامى، وذلك
على العكس من المنهج الفلسفى البرهانى، والذى يدخل فى دائرة
اليقين أكثر من المنهج الكلامى لكن هذا لا يقلل بوجه عام من الجهد
الذى بذله الشيخ الإمام فى رسالة التوحيد ويكفى أن هذه الرسالة
تكشف كما قلنا عن غزارة اطلاع وديقة فى العرض والتحليل. وفى
ذكرى الرجل نقول إن من حقنا أن نفخر به، ومن واجبنا دراسة
أفكاره، تلك الأفكار التى جعلته مفكرا عربيا معاصرا من طراز
ممتاز والله هو الموفق للسداد .

عاطف العراقى

رسالة التوحيد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ٢ الرحمن الرحيم ٣ مالك يوم الدين ٤ إياك نعبد وإياك نستعين ٥ إهدنا الصراط المستقيم ٦ صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ٧ .

(وبعد) فلما كنت في بيروت من أعمال سورية ، أيام بعدي عن مصر عقب حوادث سنة ١٢٩٩ هجرية ودعيت في سنة ١٣٠٣ إلى تدريس بعض العلوم في المدرسة السلطانية ، ومنها كان علم التوحيد رأيت أن المختصرات في هذا الفن ربما لا تأتي على الغرض من إفادة التلامذة ، والمطولات تعلو على أفهامهم والمتوسطات ألفت لزم من غير زمانهم ، فرأيت من الاليق أن أملئ عليهم ما هو أمس بحالهم ، فكانت أمانى مختلفة تتغير بتغير طبقاتهم ، أقربها إلى كفاية الطالب ما أملئ على الفرقة الأولى في أسلوب لا يصعب تناوله ، وإن لم يعهد تناوله ، تمهيد مقدمات ، وسير منها إلى المطالب من غير نظر إلا إلى صحة الدليل ، وإن جاء في التعبير على خلاف ما عهد من هيئة التأليف ، رامياً إلى الخلاف من مكان بعيد حتى ربما لا يدركه إلا الرجل الرشيد غير أن تلك الأمانى لم تحفظ إلا في دفاتر التلامذة ولم أستبق لنفسى منها شيئاً وعرض بعد ذلك ما استقدمنى إلى مصر . وكان من تقدير الله أن اشتغل بغير التعليم ،

٤ سبب تأليف الرسالة والالتزام مسلك السلف فيها

حتى أتى النسيان على ما أملت وذهب عن خاطر جميع ما ألفت، إلى أن خطر لي من مسدة أشهر خاطر العود إلى ما تهواه نفسي، ويصبو إليه عقلي وحسي، وأن أشغل أوقات فراغي بمدرسة شيء من علم التوحيد، علماً مني أنه ركن العلم الشديد، قد كرت سابق العمل، وتعلق بمثله الأمل، وعزمت أن أكتب إلى بعض التلامذة ليرسل إلي، ما تلقاه بين يدي، لكيلا أنفق من الزمن ما أنا في أشد الحاجة إليه في إنشاء ما أرى التعويل عليه، وذكرت ذلك لأخي^(١) فأخبرني أنه نسخ ما أملت على الفرقة الأولى. فطلبته وقرأته فإذا هو قريب مما أحب، قد يحتاج إليه القاصر، وربما لا يستغنى عنه المكاثر، على اختصار فيه مقصود، ووقوف عند حد من القول محدود، قد سلك في العقائد مسلك السلف، ولم يعب في سيره آراء الخلف، وبعد عن الخلاف بين المذاهب، بعد علمه عن أعاصير المشاغب، ولكن وجدت فيه إيجازاً في بعض المواضع، ربما لا ينفذ منه ذهن المطالع وإغفالا لبعض ما تمس الحاجة إليه، وزيادة عما يجب في مختصر مثله أن يقتصر عليه، فسطت بعض عباراته، وحررت ما غمض من مقدماته، وزدت ما أغفل وحذفت ما فضل، وتوكلت على الله في نشره، راجياً أن لا يكون في قصره ما يحمل على إغفال أمره، أو يغض من قدره. فما من أحد بدون أن يعين ولا يفوق أن يعان. والله وحده ولي الأمر وهو المستعان

(١) هو حمودة بك عبيده. وكان تلميذاً في المدرسة السلطانية في ذلك العهد

مقدمات

التوحيد : علم يبحث فيه عن وجود الله وما يجب أن يثبت له من صفات ، وما يجوز أن يوصف به ، وما يجب أن ينفي عنه ، وعن الرسل لإثبات رسالتهم وما يجب أن يكونوا عليه وما يجوز أن ينسب إليهم ، وما يمتنع أن يلحق بهم .

أصل معنى التوحيد : اعتقاد أن الله واحد لا شريك له . وسمى هذا العلم به تسمية له بأهم أجزائه ، وهو إثبات الوحدة لله في الذات والفعل في خلق الأكوان ، وأنه وحده مرجع كل كون ومنتهى كل قصد (١) وهذا المطلب كان الغاية العظمى من بعثة النبي صلى الله عليه وسلم كما تشهد به آيات الكتاب العزيز . وسيأتى بيانه .

(١) فات الأستاذ أن يصرح بتوحيد العبادة ، وهو أن يعبد الله وحده ولا يعبد غيره بدعاء ولا بغير ذلك مما يتقرب به المشركون إلى ما عبدوا معه من الصالحين والأصنام المذكورة بهم ، وغير ذلك ، كالندور والقرايين تذبح بأسمائهم أو عند معابدهم ، وهذا التوحيد هو الذى كان أول ما يدعوا إليه كل رسول قومه ، بقوله (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره)

٦ علم العقائد في الاسلام وفيما سبقه من الاديان

وقد يسمى علم الكلام إما لأن أشهر مسألة وقع فيها الخلاف بين علماء القرون الأولى هي أن كلام الله المتلو حادث أو قديم ، وإما لأن مبناه الدليل العقلي وأثره يظهر من كل متكلم في كلامه وقبلما يرجع فيه إلى النقل اللهم إلا بعد تقرير الأصول الأولى ثم الانتقال منها إلى ما هو أشبه بالفرع عنها ، وإن كان أصلاً لما يأتي بعدها وإما لأنه في بيانه طرق الاستدلال على أصول الدين أشبه بالمنطق في تبينه مسالك الحجة في علوم أهل النظر وأبدل المنطق بالكلام^(١) للتفرقة بينهما .

* * *

هذا النوع من العلم - علم تقرير العقائد وبيان ما جاء في النبوات - كان معروفاً عند الأمم قبل الإسلام ففي كل أمة كان القائلون بأمر الدين يعملون لحفظه وتأييده وكان البيان من أول وسائلهم إلى ذلك لكنهم كانوا قلما ينحون في بيانهم نحو الدليل العقلي وبناء آرائهم وعقائدهم على ما في طبيعة الوجود أو ما يشتمل عليه نظام الكون بل كانت منازع العقول في العلم ومضارب الدين في الإلزام بالعقائد وتقرئها من مشاعر القلوب على طرفي نقيض . وكثيراً ما صرح

(١) الصواب : وأبدل الكلام بالمنطق . قال في المصباح المنير : وأبدلته بكذا إبدالاً - نحيت الأول وجعلت الثاني مكانه .

٧ امتياز القرآن على الكتب قبله في تقرير العقائد

الدين على لسان رؤسائه أنه عدو العقل نتائج ومقدماته . فكان
جل ما في علوم الكلام تأويل وتفسير ، وإدهاش بالمعجزات ، أو
إلهاء بالخيالات يعلم ذلك من له إلمام بأحوال الأمم قبل البعثة
الإسلامية .

جاء القرآن فنهج بالدين منهجاً لم يكن عليه ما سبقه من الكتب
المقدسة ، منهجاً يمكن لأهل الزمن الذي أنزل فيه ولمن يأتي بعدهم
أن يقوموا عليه . فلم يقصر الاستدلال على نبوة النبي (ص) بما عهد
الاستدلال به على النبوات السابقة . بل جعل الدليل (١) في حال
النبي مع نزول الكتاب عليه في شأن من البلاغة يعجز البلغاء عن
محاكاة فيه ولو في مثل أقصر سورة منه . وقص علينا من صفات الله
ما أذن الله لنا أو ما أوجب علينا أن نعلم لكن لم يطلب التسليم به لمجرد أنه
جاء بحكايته ولكنه أقام الدعوى وبرهن (٢) وحكى مذاهب المخالفين

(١) أى الدليل الذى هو العمدة فى التحدى وإن وجد غيره بل هذا
الدليل مركب من عدة أدلة . أولها حال النبي فى أميته وظهور العلم على
لسانه فى كهولته ، ومنها إعجاز القرآن ببلاغته ، وأقوى منه إعجازه بما
فيه من العلوم الآلهية والتشريع والإخبار بالغيوب الماضية والمستقبلية
عما يئنه المؤلف فى الكلام على نبوة محمد (ص) .

(٢) قال فى الأساس : أبره : جاء بالبرهان . وبرهن مولد

وكر عليها بالحجة (١) وخاطب العقل ، واستنهض الفكر ، وعرض نظام الأكوان وما فيها من الإحكام والإتقان على أنظار العقول ، وطالها بالإمعان فيها لتصل بذلك إلى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا إليه ، حتى إنه في سياق قصص أحوال السابقين كان يقرر للخلق سنة لا تغير (٢) وقاعدة لا تبدل ، فقال (٤٨ : ٣٢) سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا (٣) وصرح (١٣ : ١١) إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم (٣٠ : ٣٠) فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبدل لخلق الله (واعتضد بالدليل حتى في باب الأدب فقال (٤١ : ٣٤) ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) وتأخى العقل والدين لأول مرة في كتاب مقدس على لسان نبي مرسل ، بتصریح لا يقبل التأويل .

وتقرر بين المسلمين كافة — إلا من لاثقة بعقله ولا بدينه — أن من قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به إلا من طريق العقل كالعلم بوجود الله وبقدرته على إرسال الرسل وعلمه بما يوحى به إليهم

(١) أى حمل عليها مجالدا لها بالحجة

(٢) تغير — بفتح التاء — أصله تغير حذف منه التاء وأثبتها في تبدل على الأصل . ويجوز أن تكون « تغير » بضم التاء بالبناء للفعول أى لا يغيرها أحد ولا تبدل بنفسها .

(٣) « صرح » يتعدى بالباء . وهناقدر بعده القول أو ضمن معناه

وإرادته لاختصاصهم برسائله وما يتبع ذلك مما يتوقف عليه فهم معنى الرسالة وكالتصديق بالرسالة نفسها ، كما أجمعوا على أن الدين إن جاء بشئ قد يعلو على الفهم ، فلا يمكن أن يأتي بما يستحيل عند العقل .

جاء القرآن يصف الله بصفات — وإن كانت أقرب إلى التنزيه مما وصف به في مخاطبات الأجيال السابقة — فن صفات البشر ما يشاركها في الاسم أو في الجنس (١) كالقدرة والاختيار والسمع والبصر. وعزا إليه أموراً يوجد ما يشبهها في الإنسان كالاستواء على العرش وكالوجه واليدين ، ثم أفاض في القضاء السابق وفي الاختيار الممنوح للإنسان ، ولجادل الغالين من أهل المذاهب ، ثم جاء بالوعد والوعيد على الحسنات والسيئات ووكّل الأمر في الثواب والعقاب إلى مشيئة الله ، وأمثال ذلك مما لا حاجة إلى بيانه في هذه المقدمة .

فاعتبار حكم العقل ، مع ورود أمثال هذه المشابهات في النقل ، فسح مجالاً للتأخرين ، خصوصاً ودعوة الدين إلى الفكر في المخلوقات لم تكن محدودة بحد ولا مشروطة بشرط ، للعلم بأن كل نظر صحيح فهو مؤد إلى الاعتقاد بالله على ما وصفه بلا غلو في

(١) قولان . اختار المؤلف في الدرس أولهما

٢٠. الاتفاق في فهم الدين مدة النبي وخليفته

التجريد ولا دنو من التحديد (١).

مضى زمن النبي صلى الله عليه وسلم وهو المرجع في الحيرة ،
والسراج في ظلمات الشبهة ، وقضى الخليفان بعده ما قدر لهما من
العمر في مدافعة الأعداء ، وجمع كلمة الأولياء : ولم يكن للناس
من الفراغ ما يخلون فيه مع عموهم ليتلوها بالبحث في مباني عقائدهم .
وما كان من اختلاف قليل رد إليهما . وقضى الأمر فيه بحكمهما ،
بعد استشارة من جاورهما من أهل البصر بالدين إن كانت حاجة إلى
الاستشارة ، وأغلب الخلاف كان في فروع الأحكام لا في أصول
العقائد . ثم كان الناس في الزمنين يفهمون إشارات الكتاب
ونصوصه ، يعتقدون بالتنزيه ، ويفوضون فيما يوم التشبيه ،
ولا يذهبون وراء ما يفهمه ظاهر اللفظ (٢) .

(١) القلو في التجريد مذهب المعطلة منكرى الصفات ، والدنو من
التحديد مذهب المشبهة ، وبينهما مذهب السلف الوسط ، وهو أن نصفه
تعالى بما وصف به نفسه بلا تعطيل ولا تمثيل ولا تأويل ؛ ويقرب
منه مذهب متكلمي الخلف الذين يمنعون التعطيل والتمثيل ؛ دون
التأويل لبعض الصفات والأفعال .

(٢) التحقيق أن السلف كانوا يأخذون في الصفات الإلهية بمعاني
الألفاظ في اللغة مع تنزيهه تعالى عن مشابهة شيء من خلقه ؛ فكأن ذاته
ليست كغيرها من الذوات ؛ فكذلك صفاته وأفعاله ، ولا يذهبون إلى
ما وراء ذلك من لوازم ظاهر اللفظ ، كالتشبيه والتحديد المأخوذ من
إطلاقه في الأصل على المخلوق . فان التنزيه قد جعل المشاركة في اللفظ إسمية
أو جنسية لا شخصية ؛ كما تقدم في الصفحة السابقة

الشقاق في زمن عثمان ومثيرة عبد الله بن سبا اليهودي ١١

كان الأمر على ذلك إلى أن حدث ما حدث في عهد الخليفة الثالث وأفضى إلى قتله . هوى بتلك الأحداث ركن عظيم من هيكل الخلافة ، واصطدم الإسلام وأهله صدمة زحزحتهم عن الطريق التي استقاموا عليها ، وبقي القرآن قائماً على صراطه (١) (١٥ : ٩) إنا نحن نزلنا ، لذلك وإنا له لحافظون) وفتح للناس باب لتعدى الحدود التي حدها الدين . فقد قتل الخليفة بدون حكم شرعي ، وأشعر الأمر قلوب العامة أن شهوات تلاعبت بالعقول في أنفس من لم يملك الإيمان قلوبهم ، وغلب الغضب على كثير من الغالين في دينهم . وتغلب هؤلاء وأولئك على أهل الأصالة منهم فقضيت أمور على غير ما يحبون .

وكان من العاملين في تلك الفتنة عبد الله بن سبا : يهودي أسلم وغلا في حب على كرم الله وجهه حتى زعم أن الله حل فيه (٢) .

(١) أي وقعت الصدمة على الإسلام وعلى أهله الذين أحدثوا فيه فأثرت فيهم ولم تؤثر في القرآن الذي كفل الله حفظه فبقى حجة عليهم .
(٢) إن ابن سبا فعل ما فعل بغضاً في الإسلام لاحقاً في على ، فاسلامه كان خديعة . وله نظراء في ذلك من اليهود ، ومثلهم بعض مجوس الفرس الذين أظهروا الإسلام ، وتسبوا بالتشيع لعل ولآل البيت عليهم السلام ، كلهم كانوا يقصدون إفساد الإسلام وإزالة ملكه بالتفريق بين أهله .
وأشار المصنف إلى ذلك فيما ترى في ص ١٤

١٢ حدوث المذاهب في الخلافة والدين : الشيعة والخوارج والمعتدلين

وأخذ يدعو إلى أنه الأحق بالخلافة ، وطعن على عثمان ، فنفاه
فذهب إلى البصرة وبث فيها فتنته ، فأخرج منها ، فذهب إلى الكوفة
ونفث ما نفث من سم الفتنة ، فنفى منها . فذهب إلى الشام فلم يجد
فيها ما يريد ، فذهب إلى مصر فوجد فيها أعوانا على فتنته . إلى أن
كان ما كان مما ذكرناه ، ثم ظهر يذهب في عهد علي ، فنفاه إلى
الدائن ، وكان رأيه جرثومة لما حدث من مذاهب الغلاة
من بعده .

توالت الأحداث بعد ذلك ، ونقض بعض المبايعين للخليفة
الرابع ما عقدوا ، وكانت حروب بين المسلمين انتهى فيها أمر
السلطان إلى الأمويين . غير أن بناء الجماعة قد انصدع . وانقسمت
عري الوحدة بينهم ، وتفرقت بهم المذاهب في الخلافة ، وأخذت
الأحزاب في تأييد آرائهم ، كل ينصر رأيه على رأى خصمه بالقول
والعمل ، وكانت نشأة الاختراع في الرواية والتأويل وغلا كل قبيل
فاfterق الناس إلى شيعة وخوارج ومعتدلين ، وغلا الخوارج
فكفروا من عداهم ، ثم استمر عنادهم وطلبهم لحكومة أشبه
بالجمهورية ، وتكفيرهم لمن خالفهم زمنا طويلا ، إلى أن تضعف
أمرهم بعد حروب أكلت كثيرا من المسلمين ، وانتشرت فارتهم
في أطراف البلاد ، ولم يكفوا عن إشعال الفتن ، وبقيت منهم

الاباضية والشيعية

١٣

بقية إلى اليوم في أطراف أفريقيا وناحية من جزيرة العرب (١) وغلا بعض الشيعة رفعوا عليا، أو بعض ذريته إلى مقام الألوهية أو ما يقرب منه (٢) وتبع ذلك خلاف في كثير من العقائد.

(١) لأنه يعني هذه البقية . الاباضية الذين في طرابلس الغرب وصحراء الجزائر وزنجبار من أفريقية ، وفي عمان من جزيرة العرب . ولكن الاباضية يتبرءون من الخوارج الذين يكفرون من مخالفتهم كالأصفرية والأزارقة . ويفرقون بين الكفر المخرج من الملة كالشرك وما دونه من الفسق، ويقولون بالإمامة، ولكن لهم تشديداً في قاعدة الولاية والبراءة فيقولون الشيخين وجمع الصحابة الذين كانوا قبل خروج الناس على عثمان وما أنكر عليه الصحابة (رض) وقتة على ومعاوية . ويقولون إن علياً هو الامام الحق ، وإن معاوية كان باغياً بخروجه عليه ولذلك يخطئون علياً في قبول التحكيم في الأمر وهو يعلم أنه صاحب الحق ولم فيمن قبلوا التحكيم ثلاثة أقوال: البراءة منهم، والوقف فيهم، وثالثها الولاية لهم كسائر الصحابة ، وهو قول أهل السنة . وهم في تأويل آيات الصفات وأحاديثها بين الأشاعرة والمعتزلة . وأما العمل بالأوامر والنواهي فهم أشد الفرق الإسلامية إذعاناً وطاعة لها ، كالوهابية من أهل السنة لا يكاد يوجد في بلادها تارك صلاة أو مانع زكاة أو مجاهر بكبيرة

(٢) منهم الذين رفعوه إلى الألوهية وحده ، ومنهم من جعلوها موروثة في بعض ذريته وهم الباطنية ، ومنهم من قالوا بعصمته وعصمة بعض أفراد ذريته ، وغلا فيهم على درجات مختلفة

غير أن شيئاً من ذلك لم يقف في سبيل الدعوة الإسلامية ، ولم يحجب ضياء القرآن عن الأطراف المتناهية عن مثار النزاع . وكان الناس يدخلون فيه أفواجا من الفرس والسوريين ومن جاورهم . والمصريين والإفريقيين ومن يليهم ، واستراح جمهور عظيم من العمل في الدفاع عن سلطان الإسلام ، وأن لهم أن يشتغلوا في أصول العقائد والأحكام ، بما هدام إليه سير القرآن . اشتغالا يحرص فيه على النقل ولا يهمل فيه اعتبار العقل ولا يغض فيه من نظر الفكر ووجد من أهل الإخلاص من انتدب للنظر في العلم والقيام بفريضة التعليم ، ومن أشهرهم الحسن البصري ، فكان له مجلس للتعليم والإفادة في البصرة يجتمع إليه الطالبون من كل صوب ، وتمتحن فيه المسائل من كل نوع وكان قد انحف بالإسلام ولم يتبطنه أناس من من كل ملة ، دخوله حاملين لما كان عندهم ، راغبين أن يصلوا بينه وبين ما وجدوه ، فنارت الشبهات بعد ما هبت على الناس أعاصير الفتن ، واعتمد كل ناظر على ما صرح به القرآن من إطلاق العنان للفكر وشارك الدخلاء . من حق لهم السبق من العرفاء ، وبدت رموس المشاقين ، تعلو بين المسلمين .

وكانت أول مسألة ظهر الخلاف فيها مسألة الاختيار واستقلال الإنسان بإرادته وأفعاله الاختيارية ، ومسألة من ارتكب الكبيرة

ولم يتب . اختلف فيها واصل بن عطاء وأستاذه الحسن البصري واعتزله يعلم اصولاً لم يكن أخذها عنه ، غير أن كثيراً من السلف ومنهم الحسن - على قول - كان على رأى أن العبد مختار في أعماله الصادرة عن علمه وإرادته^(١) وقام ينزع هؤلاء أهل الجبر الذين ذهبوا إلى أن الإنسان في عمله الإرادى كأغصان الشجرة في حركاتها الاضطرابية ، كل ذلك وارباب السلطان من بني مروان لا يحفلون بالأمر . ولا يعنون برد الناس إلى أصل . وجمعهم على أمر يشملهم ثم يذهب كل إلى ماشاء ، سوى أن عمر بن عبدالعزيز أمر الزهرى بتدوين ما وصل إليه من الحديث^(٢) وهو أول من جمع الحديث .

ثم لم يقف الخلاف عند المسألتين السابقتين ، بل امتد إلى إثبات صفات المعاني للذات الإلهية أو نفيها عنها ، وإلى تقرير سلطة العقل في معرفة جميع الأحكام الدينية . حتى ما كان منها فروعا وعبادات (غلوا في تأييد خطة القرآن) أو تخصيص تلك السلطة بالأصول الأولى - على ما سبق بيانه - ثم غالى آخرون - وهم الأقالون - فحوها

-
- (١) بل كان جمهور السلف على هذا ، وتبعهم أكثر أهل الحديث
 (٢) الصواب أنه أمر بذلك أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم .
 وأما محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى فكان يكتب السنن والآثار من تلقاء نفسه .

بالمرة ، وخالفوا في ذلك طريقة الكتاب عناداً للأولين ، وكانت الآراء في الخلفاء والخلافة تسير مع الآراء في العقائد ؛ كأنها مبنية من مباني الاعتقاد الإسلامي .

تفرقت السبل باتباع واصل " وتناولوا من كتب اليونان مالا يقبل بعقولهم ، وظنوا من التقوى أن تؤيد العقائد بما أثبتته العلم بدون تفرقة بين ما كان منه راجعاً إلى أوليات العقل ، وما كان سراً في نظر الوهم . فخلطوا بمعارف الدين مالا ينطبق على أصل من أصول النظر ، ولجوا في ذلك حتى صارت شيعتهم تعد بالعشرات أيدهم الدولة العباسية وهي في ريعان القوة فغلب رأيهم ، وابتدأ علماءهم يؤلفون الكتب ، فأخذ المتمسكون بمذاهب السلف يناضلونهم محتصمين بقوة اليقين ، وإن لم يكن لهم عضد من الحكام

عرف الأولون من العباسيين ما كان من الفرس في إقامة دولتهم وقلب دولة الأمويين ، واعتمدوا على طلب الأنصار فيهم وأعدوا لهم مناصب الرفعة بين وزرائهم وحواشيهم - فعلا امر كثير منهم . وهم ليسوا من الدين في شيء . وكان فيهم المانوية واليزدية ومن لا دين له ، وغير أولئك من الفرق الفارسية ، فأخذوا ينتشون من أفكارهم

ويشيرون بجاهلهم وبمقالمهم إلى من يرى مثل آرائهم أن يقتدوا بهم ،
 فظهر الاتحاد ، وتطلعت رموس الزندقة حتى صدر أمر المنصور
 بوضع كتب لكشف شبهاتهم ، وإبطال مزاعمهم .

فيما حوالى هذا العهد كانت نشأة هذا العلم نبثاً لم يتكامل نموه ،
 وبناء لم يتشأخ علوه ، وبدأ علم الكلام كما انتهى مشوباً بمبادئ
 النظر فى الكائنات جرياً على ماسنه القرآن من ذلك .

وحدثت فتنة القول بخلق القرآن أو أزليته (١) واتصر للأول جمع
 من خلفاء العباسيين وأمسك عن القول أو صرح بالأزلية عدد غير من
 المتمسكين بظواهر الكتاب والسنة ، أو المتعفين عن النطق بما فيه
 مجازاة البدعة وأهين فى ذلك رجال من أهل العلم والتقوى . وسفكت
 فيه دماء بغير حق . وهكذا تعدى القوم حدود الدين باسم الدين .

(١) التحقيق أن كلا من القولين مبتدع فوصف القرآن بالقدم
 والأزلية لا أصل له من الكتاب والسنة ، ولم يقل به أحد من الصحابة
 ولا من التابعين ولكنه بنى على نظرية فى الرد على مبتدعى القول بخلقه
 من منكرى صفات الله عز وجل ، وهى أن القرآن كلام الله ، فهو صفة
 من صفاته الأزلية ، ومن ثم صار القول بقدمه من اصطلاح متكلمي أهل
 السنة ، وأنصار السلف من أهل الحديث ينكرون على متكلمي الأشاعرة
 أقوالهم فى الكلام النفسى واللفظى ، وهى فلسفة . ليتها لم تكن ، وانظر
 حاشيتنا الآتية على صفة الكلام .

(٢ م رسالة التوحيد)

على هذا كان النزاع بين ما تطرف من نظر العقل . وما توسط
أو غلام من الإستمسك بظاهر الشرع ، والكل على وفاق على أن
الأحكام الدينية واجبة الإلتباع : ما تعلق منها بالعبادات والمعاملات
وجب الوقوف عنده ، وما مس بواطن القلوب وملكات النفوس
فرض توطين النفس عليه ، وكان وراء هؤلاء قوم من أهل الخلول
أو الدهريين طلبوا أن يحملوا القرآن على ما حملوه عند التحاقهم بالإسلام
وأقروا في التأويل ، وحولوا كل عمل ظاهر إلى سرّ باطن ، وفسروا
الكتاب بما يبعد عن تناول الخطاب ، بعد الخطأ عن الصواب ،
وعرفوا بالباطنية أو الإسماعيلية ، ولهم أسماء أخر تعرف في التاريخ ،
فكانت مذاهبهم غائلة الدين ، وزلزال اليقين ، وكانت لهم فتن
معروفة وحوادث مشهورة .

مع اتفاق السلف وخصومهم في مقارعة هؤلاء الزنادقة وأشياعهم
كان أمر الخلاف بينهم جللاً ، وكانت الأيام بينهم دولا ، ولا يمنع
ذلك من أخذ بعضهم عن بعض ، واستفادة كل فريق من صاحبه ،
إلى أن جاء الشيخ أبو الحسن الأشعري في أوائل القرن الرابع (١)
وسلك مسلكه المعروف وسطاً بين موقف السلف وتطرف من

(١) ولد سنة ٢٧٠ وقيل ، ٢٦٠ وتوفي سنة ٣٣٠ ونيف

خالقهم ، وأخذ يقرر العقائد على أصول النظر ، وارتاب في أمره الأولون وطعن كثير منهم على عقيدته ، وكفره الخنابلة واستباحوا دمه . ونصره جماعة من أكابر العلماء ، كأبي بكر الباقلاني وإمام الحرمين والإسفرائيني وغيرهم (١) وسموا رأيه بذهب أهل السنة والجماعة (٢) فانهزم من بين أيدي هؤلاء الأفاضل قوتان عظيمتان قوة الواقفين عند الظواهر ، وقوة الغالين في الجري خلف ماترينه الخواطر . ولم يبق من أولئك وهؤلاء بعد نحو (من) قرنين لإلقتات قليلة في أطراف البلاد الإسلامية .

غير أن الناصرين لمذهب الأشعري بعد تقريرهم ما بنى رأيه عليه من نواميس الكون أوجبوا على المعتقد أن يوقن بتلك المقدمات ونتائجها كما يجب عليه اليقين بما تؤدي إليه من عقائد الإيمان . ذهاباً منهم إلى أن عدم الدليل يؤدي إلى عدم المدلول ، ومضى الأمر على

(١) أي نصره هؤلاء بعد موته .

(٢) راجت هذه التسمية بعلاوجه هؤلاء النظارعند الخلفاء والأمراء وكثرة أتباعهم من العلماء . وقد كان الأشعري معتزلياً فرجع إلى مذهب أهل السنة في أهم مسائل الخلاف بينهم وبين المعتزلة . ثم انتهى إلى مذهب السلف من كل وجه ، وصرح باتباع الإمام أحمد بن حنبل ، كما ترى في كتابه الإبانة . وكذلك كبار النظار من أنصاره كإمام الحرمين وقبلة والده الإمام الجويني وبعدهما الغزالي ثم الرازي ..

ذلك إلى أن جاء الإمام الغزالي والإمام الرازي ومن أخذ مأخذهما
نخالفوهم في ذلك ، وقرروا أن دليلاً واحداً أو أدلة كثيرة قد
يظهر بطلانها ، ولكن قد يستدل على المطلوب بما هو أقوى منها .
فلا وجه للحجج في الاستدلال .

أما مذاهب الفلسفة فكانت تستمد آراءها من الفكر المحض ،
ولم يكن من هم أهل النظر من الفلاسفة إلا تحصيل العلم ، والوفاء بما
تندفع إليه رغبة العقل من كشف مجهول أو استكناه معقول ، وكان
يمكنهم أن يبلغوا من مطالبهم ما شاموا وكان الجمهور من أهل الدين
يكتفهم بحمايته ، ويدع لهم من إطلاق الإرادة ما يتمتعون به في
تحصيل لذة عقولهم وإفادة الصناعة وتقوية أركان النظام البشري بما
يكشفون من مساوئ الأسرار المكنونة في ضمائر الكون بما أباح
الله لنا أن نتناوله بعقولنا وأفكارنا في قوله (٢ : ٢٩) خلق لكم ما في
الأرض جميعاً) إذ لم يستثن من ذلك ظاهراً ولا خفياً . وما كان
عاقلاً من عقلاء المسلمين ليأخذ عليهم الطريق أو يضع العقاب في سبيلهم
إلى ما هدوا إليه بعد ما رفع القرآن من شأن العقل وما وضعه من المكانة
بحيث ينتهي إليه أمر السعادة والتميز بين الحق والباطل والضر والنافع
وبعد ما صرح من قوله عليه السلام : « أتم أعلم بشئون دنياكم » (١) وبعد

(١) رواه مسلم من حديث أنس وعائشة بلفظ : « بأمر دنياكم » .

ماسن لنا في غزوة بدر من سنة الأخذ بما صدق من التجارب وصح من الآراء .

لكن يظهر أن أمرين غلبا على غالبهم (الأول) الإعجاب بما نقل إليهم عن فلاسفة اليونان ، خصوصاً أرسطو وأفلاطون ووجدان اللذة في تقليدهما لباديء الأمر (والثاني) الشهوة الغالبة على الناس في ذلك الوقت ، وهو أشأم الأمرين : زجوا بأنفسهم (١) في المنازعات التي كانت قائمة بين أهل النظر في الدين ، واصطدموا بعلومهم في قلة عددهم مع ما انطبعت عليه نفوس الكافة (٢) فسال حماة العقائد عليهم . وجاء الغزالي ومن على طريقته فأخذوا جميع ما وجد في كتب الفلاسفة مما يتعلق بالالهيات وما يتصل بها من الأمور العامة وأحكام الجواهر والأعراض ومذاهبهم في المادة وتركيب الأجسام وجميع ما ظننه المشتغلون بالكلام يس شيئا من مباني الدين واشتدوا في نقده . وبالعالم المتأخرون منهم في تأثرهم حتى (١) استئناف لبيان ثاني الأمرين وكونه أشأمهما حاصله أن الفلاسفة لو لم يخطوا قنونهم بالدين ويزجوا بأنفسهم في المنازعات الدينية لتركوا شأنهم في البحث وإذا لارتقت علومهم وارتقت بها الصناعة واتسع العمران . ذكره المؤلف في الدرس وكان من رأيه أنه يجب ألا تمزج الفلسفة والعلوم الدنيوية بالمسائل الدينية .

(٢) أي اصطدموا مصاحبين لعلومهم بما انطبعت عليه أنفس الجمهور من المنازعات الدينية .

كاد يصل بهم السير إلى ما وراء الاعتدال ، فسقطت منزلتهم من النفوس ، ونبذتهم العامة ، ولم تحفل بهم الخاصة ، وذهب الزمان بما كان ينتظر العالم الإسلامي من سعيهم .

هذا هو السبب في خلط مسائل الكلام بمذاهب الفلسفة في كتب المتأخرين كما تراه في كتب البيضاوى والعضد وغيرهم (١) وجمع علوم نظرية شتى وجعلها جميعاً علماً واحداً والذهاب بمقدماته ومباحثه إلى ما هو أقرب إلى التقليد من النظر . فوقف العلم عن التقدم .

ثم جاءت فن طلاب الملك من الأجيال المختلفة ، وتغلب الجهال على الأمر ، وفتكوا بما بقى من أثر العلم النظرى التابع من عيون الدين الإسلامى ، فانحرفت الطريق بسالكها ، ولم يعد بين الناظرين في كتب السابقين إلا تحاور في الألفاظ أو تناظر في الأساليب . على أن ذلك في قليل من الكتب اختارها الضعف وفضلها القصور (٢) .

(١) الظاهر أن يقال وغيرها أى الكتب ، أو غيرها أى البيضاوى والعضد ، ولعله كان ذكر غيرها فسقط من النسخ ولا أذكر أنه صححه في الدرس ولم أجده في الجدول الذى صحح ونقح به الطبعة الأولى .

(٢) يعنى أن المتأخرين أساءوا في اختيار كتب من قبلهم وكانت طريقتهم في التدريس البحث في ألفاظها وأساليبها ، دون تحرير مسائل العلم وتحقيقها ، وكان يقول فيهم : إنهم يتعلمون كتباً لاعلماء .

التحكم في التحليل والتحريم ، والإسلام والتكفير ٢٣

ثم انتشرت الفوضى العقلية بين المسلمين تحت حماية الجبهة من ساستهم فجاء قوم ظنوا في أنفسهم مالم يعترف به العلم لهم ، فوضعوا مالم يعد للإسلام قبل باحتماله . غير أنهم وجدوا من نقص المعارف أنصاراً ، ومن البعد عن يتابع الدين أعواناً ، فشدوا بالعقول عن مواطنها ، وتحكموا في التضليل والتكفير ، وغلوا في ذلك حتى قلدوا بعض من سبق من الأمم في دعوى العداوة بين العلم والدين وقالوا لما تصف ألسنتهم الكذب : هذا حلال وهذا حرام ، وهذا كفر وهذا إسلام . والدين من وراء ما يتوهمون ، والله جل شأنه فوق ما يظنون وما يصفون^(١) واسكن ماذا أصاب العامة في عقائدهم ومصادر أعمالهم من أنفسهم بعد طول الخبط وكثرة الخلط ؟ شر عظيم ، وخطب عيم . هذا بجمل من تاريخ هذا العلم^(٢) ينبئك كيف أسس على قواعد

(١) راجع ترجمة الأشعري في الطبقات الكبرى للسبكي .

(٢) فات المؤلف أن يذكر في هذه الخلاصة التاريخية أنه بعد أن استفحل سلطان الأشعرية في القرون الوسطى وضعف أهل الحديث متبعو السلف ظهر في القرن الثامن المجدد العظيم شيخ الإسلام أحمد تقي الدين بن تيمية الذي لم يأت الزمان له بتظير في الجمع بين العلوم العقلية والعقلية وقوة الحجية . فنصر مذهب السلف على المذاهب الكلامية كلها ببرهاني العقل والنقل ، وقد أحيت مصر والهند كتبته وكتب تليده الأكبر العلامة ابن القيم بعد أن كان الاهتداء بها محصوراً في بلاد نجد ، وهي الآن نعم الشرق والغرب ، وستكون عمدة جميع مسلمي الأرض

من الكتاب المبين ، وكيف عبثت به في نهاية الأمر أيدي المفرقين ،
حتى خرجوا به عن قصده ، وبعدهوا به عن حده .

والذي علينا اعتقاده أن الدين الإسلامي دين توحيد في العقائد ،
لادين تفريق في القواعد ، العقل من أشد أعوانه والنقل من أقوى
أركانه ، وما وراء ذلك فزغات شياطين . وشهوات سلاطين ،
والقرآن شاهد على كل بعمله ، قاض عليه في صوابه وخطئه .

الغاية من هذا العلم القيام بفرض مجمع عليه وهو معرفة الله تعالى
بصفاته الواجب ثبوتها له مع تنزيهه عما يستحيل اتصافه به ، والتصديق
برسالة على وجه اليقين الذي تطمئن به النفس اعتماداً على الدليل
لا استرسالاً مع التقليد ، حسبما أرشدنا إليه الكتاب ، فقد أمر
بالنظر واستعمال العقل فيما بين أيدينا من ظواهر الكون وما يمكن
النفوذ إليه من دقائقه ، تحصيلاً لليقين بما هدانا إليه ، ونهانا عن التقليد
بما حكى عن أحوال الأمم في الأخذ بما عليه آباؤهم . وتبشيع ما كانوا
عليه من ذلك ، واستبعاذه لهدم معتقداتهم وإحفاء وجودهم الملى ، وحق
ما قال ، فإن التقليد كما يكون في الحق يأتي في الباطل ، وكما يكون في
النافع يحصل في الضار ، فهو مضلة يعذر فيها الحيوان ، ولا تجمل
بحال الإنسان .

أقسام المعلوم

يقسمون المعلوم إلى ثلاثة أقسام : يمكن لذاته ، وواجب لذاته ، ومستحيل لذاته^(١) ويعرفون المستحيل بما عدمه لذاته من حيث هي ، أما الواجب فهو ما كان وجوده لذاته من حيث هي . والممكن مالا وجود له ولا عدم من ذاته ، وإنما يوجد لموجد وعدم لعدم سبب وجوده . وقد يعرض له الوجوب والاستحالة لغيره . وإطلاق

(١) هذه القسمة عقلية وهي للحصر . لأن ما يتعلق به العلم إما ثابت قطعاً لا يقبل الانتفاء لذاته وهو الواجب ، وإما ضده وهو المستحيل وإما واسطة بينهما وهو مالا تقتضى ذاته الثبوت ولا الانتفاء ، بل يجوز لها الأمران بحسب العلل وهو الممكن . فعنى كون الشيء ممكناً أو مستحيلاً أو واجباً لذاته هو كونه كذلك لغيره لئلا اقتضت ذلك غير ذاته وحقيقته أى إن ذاته إذا تصورت مجردة من كل اعتبار لم تكن إلا كذلك ، والمراد بالإمكان والوجوب والاستحالة ما كان كذلك بحكم العقل القاطع لا العادة ، فنال المستحيل : اجتماع التقيضين ، ككون الشيء موجوداً معدوماً في آن واحد أى موجوداً غير موجود فهذا معلوم — أى متعلق العلم — يجزم العقل بعدمه أى عدم تحققه لذاته ، أى إن ذاته لا يمكن أن تكون ثابتة ، وليس منه مشى الإنسان على الماء ، أو طيرانه في الهواء . وإنما هذا مستحيل عادة ، ومثال الواجب الوجود المطلق والزوجية للأربعة فإنك لا يمكنك أن تصور العدم المحض ولا كون الأربعة ليست زوجاً . ومثال الممكن ظاهر . فإن جميع هذه الموجودات التي نذكرها بحواسنا ممكنة الوجود ، كما يعلم مما يأتي في الرسالة

المعلوم على المستحيل ضرب من المجاز . فإن المعلوم حقيقة لا بد أن يكون له كون في الواقع ينطبق عليه العلم ، والمستحيل ليس من هذا القبيل كما تراه في أحكامه ، وإنما المراد ما يمكن الحكم عليه ، وإن في صورة يخترعها له العقل ليتوصل بها إلى الحكاية عنه .

﴿ حكم المستحيل ﴾

وحكم المستحيل لذاته : أن لا يطرأ عليه وجود . فإن العدم من لوازم ماهيته (١) من حيث هي فلو طرأ الوجود عليه لسلب لازم

(١) يفسرون الماهية بأنها ما به الشيء هو هو ، ونوضح ذلك بقولنا إن ماهية الشيء ترادف حقيقته في الجملة ، مثال ذلك : أن ما يتصوره الذهن من معنى الإنسانية الكلى الذى يوجد في كل إنسان غير مصاب بعلّة ككونه حيواناً ناطقاً عاقلاً يسمى ماهية الإنسان وحقيقته ، ولكن تختلف التسمية باختلاف الاعتبار فما يتعلق في الذهن من معنى الشيء الذى تقوم به ذاته ويجاب به إذا سئل عنه بما هو ذلك الشيء ؟ يسمى ماهية وإنما يسمى حقيقة أو ذاتاً باعتبار تحققه في الواقع . ولذلك يطلق لفظ الماهية على ما لا تحقق له كنهوم العناء ولا يطلق عليه لفظ الحقيقة ، ولازم الشيء ما لا ينفك عنه كزوم الانقسام إلى متساويين للزوج وكلية الماهية وتفسيرها والسؤال عن الشيء بما هو وما خصوه به واشترطوه في جوابه كل ذلك من اصطلاح علم المنطق لا من أصل اللغة . فالعرب تقول ما كذا ؟ لا ما هو كذا ، وقد يجيبون عنه بأى صفة تميز الشيء المسئول عنه عن غيره .

الماهية من حيث هي عنها ، وهو يؤدي إلى سلب الماهية عن نفسها (١) بالبداهة فالمستحيل لا يوجد فهو ليس بوجود قطعاً ، بل لا يمكن للعقل أن يتصور له ماهية كائنة (٢) كما أشرنا إليه . فهو ليس بوجود لافي الخارج ولا في الذهن .

﴿ أحكام الممكن ﴾

من أحكام الممكن لذاته أن لا يوجد إلا بسبب وأن لا ينعدم إلا بسبب ، وذلك لأنه لا واحد من الأمرين له لذاته ، فنسبتهما إلى ذاته على السواء . فإن ثبت له أحدهما بلا سبب لزم رجحان أحد

(١) قال المؤلف : إن هذا من القضايا التي قياساتها معها لأن سلب اللازم إنما يكون بسلب المألوم ، وهو كون الماهية هي ، أي فهو كسلب الانقسام إلى متساويين عن عدد الزوج وهو نفي لكونه زوجاً فكأنك قلت : إنه زوج غير زوج

(٢) يريد بهذا أن ما ذكر من ماهية المستحيل هو أمر اعتباري أو فرضي يخترعه العقل لأجل الحكاية عنه كما تقدم في الرسالة قريباً لأن له تحققاً في نفسه . فالحق أن المستحيل ليس له ماهية ثابتة في الذهن ولا حقيقة في الخارج ، أما الثاني فلامن ما في الخارج هو الموجود بالفعل والمستحيل لا يوجد ، وأما الأول فلامن ما في الذهن لا يكون إلا بصورة لما في الخارج منه ولذلك قال : فهو ليس بوجود الخ أي بل هو أمر فرضي أو اعتباري

المتساويين على الآخر بلا مرجح وهو محال بالبداهة (١) .
ومن أحكامه . أنه إن وجد يكون حادثاً لأنه قد ثبت أنه لا يوجد
إلا بسبب ، فإما أن يتقدم وجوده على وجود سببه أو يقارنه أو يكون
بعده ، والأول باطل وإلا لزم تقدم المحتاج على ما إليه الحاجة ،
وهو إبطال لمعنى الحاجة ، وقد سبق الاستدلال على ثبوتها فيؤدي إلى
خلاف المفروض ، والثاني كذلك وإلا لزم تساويهما في رتبة
الوجود (٢) فيكون الحكم على أحدهما بأنه أثر والثاني مؤثر ترجيحاً
بلا مرجح وهو بما لا يسوغه العقل ، على أن عليهما أحدهما معلولية
الآخر رجحان بلا مرجح وهو محال بالبداهة ، فتعين الثالث وهو أن
يكون وجوده بعد وجود سببه ، فيكون مسبوقة بالعدم في مرتبة وجود

-
- (١) أي لأنه جمع بين النقيضين إذ معناه أنهما متساويان غير
متساويين في آن واحد ، فهو من القضايا التي قياساتها معها
- (٢) أي إن وجوده قبل سببه يؤدي إلى الجمع بين النقيضين وهو
كونه أي الممكن محتاجاً في وجوده إلى السبب غير محتاج إليه . وقوله :
والثاني كذلك ظاهر . فإن وجود الشيء مع وجود سببه من غير سبق
السبب على المسبب يقتضي أن ما فرض سبباً لا يكون سبباً وأن الممكن
محتاج إلى السبب غير محتاج إليه وهو تناقض ظاهر ، وقوله : وإلا لزم
تساويهما في رتبة الوجود . مثاله : أن يوجد الأب والابن أي يولدا
في وقت واحد . ومن البديهي أن الشخصين اللذين يولدان في وقت
واحد لا يمكن أن يكون أحدهما أباً والآخر ابناً .

السبب فيكون حادثاً . إذ الحادث ماسبق وجوده بالعدم فكل ممكن حادث .

الممكن يحتاج فى عدمه إلى سبب وجودى لأن العدم سلب ، والسلب لا يحتاج إلى إيجاد بداهة ، فيكون عدم الممكن لعدم التأثير فيه أو لعدم ما كان سبباً فى بقاءه ، أما فى وجوده فيحتاج إلى سبب وجودى ضرورة ، لأن العدم لا يكون مصدراً للوجود ، فالوجود إن حدث فإنما يكون حدوثه بإيجاد . وذلك كاه بديهى .

كما يحتاج الممكن إلى السبب فى وجوده ابتداء يحتاج إليه فى البقاء لما بينا أن ذات الممكن لا تقتضى الوجود ولا يرجح لها الوجود عن العدم (١) إلا للسبب الخارجى الوجودى ، فذلك لازم من لوازم ماهية الامكان لا يفارقها من حيث هى فلا يكون للممكن حالة يقتضى فيها الوجود لذاته ، فيكون فى جميع أحواله محتاجاً إلى مرجح الوجود عن العدم ، لا فرق بين الابتداء والبقاء .

معنى السبب على ما ذكرنا : منشأ الإيجاد ومعطى الوجود ، وهو الذى يعبر عنه بالموجد وبالعلة الموجدة وبالعلة الفاعلة وبالفاعل الحقيقى ونحو ذلك من العبارات التى تختلف مبانيها ولا تتباين معانيها ، وقد يطلق السبب أحياناً على الشرط أو المعد الذى يهيئ الممكن لقبول الإيجاد من موجد . وهو بهذا المعنى قد يحتاج إليه فى الابتداء

(١) هذا تعبير كلامى لبعضهم . والترجيح يتعدى على

ويستغنى عنه في القاء ، وقد تكون الحاجة إلى وجوده ثم عدمه، ومن هذا القبيل وجود البناء فإنه شرط في وجود البيت وقد يموت البناء ويبقى بناؤه . وليس البناء واهب الوجود للبيت وإنما حركات يديه وحركات ذهنه وأطوار إرادته شرط لوجود البيت على هيئته الخاصة به وبالجمله فيوجد فرق بين توقف الممكن على شيء وبين استفادته الوجود من شيء . فالتوقف قد يكون على وجود شيء ثم عدم كما في توقف الخطوة الثانية على الأولى ، فإن الأولى ليست واهبة الوجود للثانية وإلا وجب وجودها معها مع أن الثانية لا توجد إلا إذا أنعدمَت الأولى ، وأما استفادة الوجود فتقتضي سبق مالك للوجود يعطيه للمستفيد منه وأن يكون وجود المستفيد مستمداً من وجود الواهب لا يقوم إلا به فلا يستقل بنفسه دونه في حال من الأحوال .

(الممكن موجود قطعاً)

نرى أشياء توجد بعد أن لم تكن وأخرى تنعدم بعد أن كانت كأشخاص النباتات والحيوانات: فهذه الكائنات إما مستحيلة أو واجبة أو ممكنة . لاسيلا إلى الأول لأن المستحيل لا يطرأ عليه الوجود ، ولا إلى الثاني لأن الواجب له الوجود من ذاته ^(١) وما بالذات لا يزول، فلا يطرأ عليه العدم ، ولا يسميه كما سيجيء في أحكام الواجب فهي ممكنة ، فالممكن موجود قطعاً .

(١) قوله « له الوجود من ذاته » جملة هي خبر أن .

وجود الممكن يقتضى بالضرورة وجود الواجب ضرورة ٣١

(وجود الممكن يقتضى بالضرورة وجود الواجب)

جملة الممكنات الموجودة ممكنة بداهة ، وكل ممكن محتاج إلى سبب يعطيه الوجود ، فجملة الممكنات الموجودة محتاجة بنهاها إلى موجد لها ، فإما أن يكون عليها وهو محال لاستلزامه تقدم الشيء على نفسه ، وإما أن يكون جزأها وهو محال لاستلزامه أن يكون الشيء سبباً لنفسه ولما سبقه إن لم يكن الأول ، ولنفسه فقط إن فرض أول ، وبطلانه ظاهر ، فوجب أن يكون السبب وراء جملة الممكنات ، والموجود الذى ليس بممكن هو الواجب إذ ليس وراء الممكن إلا المستحيل . والواجب والمستحيل لا يوجد فيبقى الواجب ، فثبت أن للممكنات الموجودة موجدأ واجب الوجود^(١) .

وأيضاً الممكنات الموجودة سواء كانت متناهية أو غير متناهية قائمة بوجود ، فذلك الوجود إما أن يكون مصدره ذات الإمكان وماهيات الممكنات وهو باطل ، لما سبق في أحكام الممكن من أنه لاشئ من الماهيات الممكنة بمقتضى للوجود ، فتعين أن يكون مصدره سواها وهو الواجب بالضرورة .

(١) هذه هى نتيجة تلك المقدمات كلها . وملخصها : أن المستحيل لا يوجد والممكن موجود بالفعل ويوجد دائماً بوجوده يدل على وجود الواجب قطعاً ، لأنه هو الذى يعطيه الوجود إذ لا وجود له من ذاته

أحكام الواجب

القدم والبقاء ونفي التركيب

من أحكام الواجب : أن يكون قديماً أزلياً لأنه لو لم يكن كذلك لكان حادثاً ، والحادث ماسبق وجوده بالعدم فيكون وجوده مسبوقاً بعدم ، وكل ماسبق بالعدم يحتاج إلى علة تعطيه الوجود ولا يلزم رجحان المرجوح بلا سبب وهو محال ، فلو لم يكن الواجب قديماً لكان محتاجاً في وجوده إلى موجود غيره ، وقد سبق أن الواجب ما كان وجوده لذاته فلا يكون مافرض واجباً واجباً وهو تناقض محال . ومن أحكامه أن لا يطرأ عليه عدم ولا يلزم سلب ماهو للذات عنها وهو يعود إلى سلب الشيء عن نفسه وهو محال بالبداهة .

من أحكامه أن لا يكون مركباً إذ لو تركب لتقدم وجود كل جزء من أجزائه على وجود جملته التي هي ذاته وكل جزء من أجزائه غير ذاته بالضرورة ، فيكون وجود جملته محتاجاً إلى وجود غيره . وقد سبق أن الواجب ما كان وجوده لذاته . ولأنه لو تركب لكان الحكم له بالوجود موقفاً على الحكم بوجود أجزائه ، وقد قلنا إنه لذاته من حيث هي ذاته ولأنه لا مرجح لأن يكون الوجوب له دون كل جزء من أجزائه بل يكون الوجوب لها أرجح فتكون هي الواجبة دونه

الواجب لا يكون مركباً ولا قابلاً للقسمه ٣٣

نفي التركيب في الواجب شامل لما يسمونه حقيقة عقلية^(١) أو خارجية فلا يمكن للعقل أن يحاكي ذات الواجب بمركب فإن الأجزاء العقلية لا بد لها من منشأ انتزاع في الخارج ، فلو تركبت الحقيقة العقلية فكانت الحقيقة مركبة في الخارج وإلا كان ما فرض حقيقة عقلية اعتباراً كاذب الصدق^(٢) لاحقيقة .

كما لا يكون الواجب مركباً لا يكون قابلاً للقسمه^(٣) في أحد الامتدادات الثلاث ، أي لا يكون له امتداد ، لأنه لو قبل القسمه لعاد بها إلى غير وجوده الأول، وصار إلى وجودات متعددة وهي وجودات الأجزاء الحاصلة من القسمه فيكون ذلك قبولا للعدم أو تركباً وكلاهما محال كما سبق

(١) قوله «حقيقة عقلية» مبني على القول بها على سبيل التوضيح وإلا فما يعرف عند علماء المعقول بالحقيقة العقلية لا ثبوت له وقد نفاها المؤلف في الدرس وأثبت أنه ليس وراء الحقائق الخارجية الممكنة إلا إدارتها أي الصور التي ينتزعها الذهن من الوجود الخارجي ، وبين في درس المنطق بطلان مذهب أفلاطون في الوجود العقلي ومذهب أرسطو في كون الصور الذهنية هي حقائق هذه الموجودات الخارجية

(٢) قوله «اعتباراً الخ» خبر كان أي تصورا مخترعاً لا يصدق على شيء في الواقع . والمعبارة عرقية منطقية ، لا عربية فصيحة

(٣) سئل المؤلف في الدرس هل يصدق ذلك بالجواهر الفرد بالمعنى الذي يقولونه وهو أنه لا يقبل القسمه فعلاً ولا عقلاً ولا وهماً؟ فقال : إن الجواهر الفرد بهذا المعنى لاحقيقة له ونحن نحمل كلام من يقول بالجواهر الفرد على الجزء الذي لا ينقسم فعلاً لشدة صغره وهذا ليس بمراد هنا قطعاً اه والموضوع كله من نظريات الفلسفة القديمة الباطلة

(٣ م رسالة التوحيد)

الحياة

معنى الوجود وإن كان بديهياً عند العقل ولكنه يتمثل له بالظهور ثم الثبات والاستقرار، وكمال الوجود وقوته بكمال هذا المعنى وقوته بالبداهة.

كل مرتبة من مراتب الوجود تستتبع بالضرورة من الصفات الوجودية ما هو كمال لتلك المرتبة في المعنى السابق ذكره، وإلا كان الوجود لمرتبة سواها وقر فرض لها.

ما يتجلى للنفس من مثل الوجود لا ينحصر وأكمل مثال في أى مراتبه ما كان مقرونا بالنظام والكون على وجه ليس فيه خلل ولا تشويش، فإن كان ذلك النظام بحيث يستتبع وجوداً مستمراً وإنه في النوع دل على كمال المعنى الوجودى في صاحب المثال.

فإن تجلت للنفس مرتبة من مراتب الوجود على أن تكون مصدر الكل نظام كان ذلك عنواناً على أنها أكل المراتب وأعلاها، وأرفعها وأقواها

وجود الواجب هو مصدر كل وجود ممكن كما قلنا وظهر بالبرهان القاطع، فهو بحكم ذلك أقوى الوجودات وأعلاها. فهو يستتبع من الصفات الوجودية ما يلائم تلك المرتبة العليا، وكل ما تصوره العقل كلاً في الوجود من حيث ما يحيط به من معنى الثبات والاستقرار

والظهور وأمكن أن يكون له وجب أن يثبت له ^(١) وكونه مصدراً للنظام وتصريف الأعمال على وجه لا اضطراب فيه يعد من كمال الوجود كما ذكرنا فيجب أن يكون ذلك ثابتاً له، فالوجود الواجب يستتبع من الصفات الوجودية التي تقتضيها هذه المرتبة ما يمكن أن يكون له .

فما يجب أن يكون له صفة الحياة وهي صفة تستتبع العلم والإرادة، وذلك أن الحياة بما يعتبر كمالاً للوجود بداهة، فإن الحياة مع ما يتبعها مصدر النظام وناموس الحكمة ^(٢) وهي في أي مراتبها مبدأ الظهور والاستقرار في تلك المرتبة ، فهي كمال وجودي ويمكن أن يتصف بها الواجب . وكل كمال وجودي يمكن أن يتصف به وجب أن يثبت له فواجب الوجود حي وإن باينت حياته حياته الممكنات فإن ما هو كمال للوجود إنما هو مبدأ العلم والإرادة . ولولم تثبت له هذه الصفة ^(٣) لكان في الممكنات ما هو أكمل منه وجوداً . وقد تقدم أنه أعلى الموجودات وأكملها فيه .

والواجب هو واهب الوجود وما يتبعه . فكيف لو كان فاقداً للحياة يعطيها ؟ فالحياة له كما أنه مصدرها

(١) الشيخ الإسلام ابن تيمية رسالة بديعة في إثبات انصافه تعالى بكل كمال وهي في الجزء الخامس من مجموعة رسائله المطبوعة في مطبعة المنار
(٢) دليل فيه إضمار تقديره . وكل ما كان مصدر النظام الخ فهو كمال وجودي فالحياة كمال وجودي

(٣) دليل ثان على ثبوت الحياة لواجب الوجود ، وقوله بعده
« والواجب هو واهب الوجود ، دليل ثالث :

العلم

وبما يجب له صفة العلم . ويراد به ما به انكشاف شيء عند من ثبتت له تلك الصفة أى مصدر ذلك الانكشاف منه (١) لأن العلم من الصفات الوجودية التى تعد كالألأ فى الوجود . ويمكن (٢) أن تكون للواجب . وكل ما كان كذلك وجب أن يثبت له ، فواجب الوجود عالم ثم البداة قاضية بأن العلم كالأ فى الموجودات الممكنة ومن الممكنات من هو عالم ، فلو لم يكن الواجب عالماً لكان فى الموجودات الممكنة ما هو أكمل من الوجود الواجب وهو محال كما قدمنا . ثم هو واهب العلم فى عالم الإمكان ولا يعقل أن مصدر العلم يفقده (٣) .

علم الواجب من لوازم وجوده كما ترى فيعلو على العلوم علو وجوده عن الوجودات (٤) فلا يتصور فى العلوم ما هو أعلى منه ، فيكون محيطاً

-
- (١) بيان لمعنى العلم فى اللغة وسند ذكر معنى علمه تعالى فى حاشية صفحة ٦٤
 (٢) كتب المصنف فى حاشية نسخة الدرس هنا . أى بالإمكان العام
 (٣) وكتب هنا : العلم كالأ والناقض الفاقء كالأ لا يمكنه أن يهب كالأ بالضرورة ، وأما الصفات التى لا تعد كالأ ولا تقصاهاهى من خواص الماهيات كالحرارة فليست من هذا القليل « فيمكن » هبتها مع فقدها اه
 (٤) هكذا اختلفت تعدية العلو بعلو وعن والعبارة فى معنى قول السلف بعلوه تعالى فوق جملة خلقه باثنا منهم « والله من ورائهم محيط »

بكل ما يمكن علمه ، وإلا تصور العقل علماً أشمل ، وهو إنما يكون لوجود أكمل ، وهو محال .

ما هو لازم لوجود الواجب يغنى بغناه (١) ويبقى ببقائه ، وعلم الواجب من لوازم وجوده ، فلا يفتقر إلى شيء ما وراء ذاته : فهو أزلى أبدى غنى عن الآلات وجولات الفكر وأفاعيل النظر ، فيخالف علوم الممكنات بالضرورة .

ما يوجد من الممكنات فهو موافق لما انكشف بذلك العلم . وإلا لم يكن علماً .

من أدلة ثبوت العلم للواجب ما نشاهده في نظام الممكنات من الإحكام والإتقان ، ووضع كل شيء في موضعه ، وقرن كل ممكن بما يحتاج إليه في وجوده وبقائه ، وذلك ظاهر لجلي النظر بما يشاهد في الأعيان كبرها وصغيرها علوها وسفلها ، فهذه الروابط بين الكواكب والنسب الثابتة بينها ، وتقدير حركاتها على قاعدة تكفلها البقاء على الوضع الذي قدر لها ، وإلزام كل كوكب بمدار لو خرج عنه لاختل نظام عمله أو العالم بأسره ، وغير ذلك مما فصل في علوم الهيئة الفلكية — كل ذلك يشهد بعلم صانعه وحكمة مدبره .

(١) غنى بالشيء . اكتفى به واستغنى به عن غيره وفي الطبعة الخامسة بفنائه بالفاء وهو غلط بالطبع . وباطل بالعقل والشرع

اعتبر بما ترام في جزئيات النباتات والحيوانات من توفيتها قواها وإيتائها ما تحتاج إليه في تقويم وجودها من الآلات والأعضاء ووضع ذلك في مواضعه من أبدانها ، وإيداع غير الحساس منها كالنبات قوة الميل إلى تناول ما يناسبه من الغذاء دون ما يلائمه . فترى بذرة الحنظل تدفن بجوار حبة البطيخ في أرض واحدة ثم تسقى بماء واحد وتنمى بعناية واحدة ، ولكن تلك تمتص من المواد ما يغذى المر الزعاق ، وهذه تتناول ما يغذو حلو المذاق ، وإرشاد الحساس منها إلى استعمال ما منح من تلك الأدوات والأعضاء وسوق كل قوة من قواه إلى ما قدرت له . فهو الذي يعلم حالة الجنين وهو نطفة أو علقة ويعلم حاجته — متى تكامل خلقه وأنشأ نشأة الحى المستقل في عمله — إلى الأيدي والأرجل والأعين والمشام والأذان وبقية المشاعر الباطنة ليستعمل ذلك فيما يقيم وجوده ويقيه من العوادي عليه . وحاجته إلى المعدة والكبد والرئة ونحوها من الأعضاء التي لا غنى عنها في النمو والبقاء إلى الأجل المحدود للشخص أو للنوع .

هو الذي يعلم حالة الجروعة من الكلاب مثلاً ، وأنها متى كبرت تلد أجراء متعددة فيمنحها أطباء (١) كثيرة وغير ذلك مما لا يستطيع

(١) الأجراء . جمع جرو ، والأطباء جمع طبي بالكسر . وهي حلبات الضرع

إحصاؤه . وقد فصل الكثير منه في كتب النباتات وحياة الحيوان وما يسمى التاريخ الطبيعى وفنون منافع الأعضاء والطب وما يتبعه ، على أن الباحثين فى كل ذلك بعد ما بذلوا من الجهد وما صرفوا من الجهد ، وما كشفوا من الأسرار لم يزالوا فى أول البحث .

هذا الصنيع الذى إنما تتفاضل العقول فى فهم أسرارها والوقوف على دقائق حكمه ، ألا يدل على أن مصدره هو العالم بكل شيء ؟ الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ؟ هل يمكن لمجرد الاتفاق المسمى بالصدقة (١) أن يكون ينبوعاً لهذا النظام ؟ وواضحاً لتلك القواعد التى يقوم عليها وجود الأكوان عظيمها وحقيقها ؟ كلا ، بل مبدع ذلك كله هو من لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم .

(١) « الصدقة » كلمة استعملها المولودون ولم تعرف عن العرب وقد استبدل بها المؤلف فى تصحيح خطبة شرحه لنهج البلاغة لفظ المصادقة وتركها هنا سهواً أو مراده المسمى فى عرف الناس بالصدقة

الإرادة

نما يجب لواجب الوجود الإرادة . وهى صفة تخصص فعل العالم بأحد وجوهه الممكنة ^(١)

بعد ما ثبت أن واهب وجود الممكنات هو الواجب وأنه عالم ، وأن ما يوجد من الممكن لا بد أن يكون على وفق علمه ثبت بالضرورة أنه مريد لأنه إنما يفعل على حسب علمه . ثم إن كل موجود فهو على قدر خصوص وصفة معينة ، وله وقت ومكان محدودان ، وهذه وجوه قد خصصت له دون بقية الوجوه الممكنة وتخصيصها كان على وفق العلم بالضرورة ، ولا معنى للإرادة إلا هذا .

أما ما يعرف من معنى الإرادة وهو ما به يصح للفاعل أن ينفذ ما قصد وأن يرجع عنه فذلك محال في جانب الواجب . فإن هذا المعنى من المعلوم الكونية والعزائم القابلة للفسخ ، وهى من توابع النقص في العلم ، فتتغير على حسب تغير الحكم وتردد الفاعل بين البواعث على الفعل والترك .

(١) يعنى الوجوه المتقابلة التى لا تجتمع كما يعلم مما يأتى

القدرة

وعما يجب له القدرة وهي صفة بها الإيجاد والاعدام . ولما كان الواجب هو مبدع الكائنات على مقتضى علمه وإرادته ، فلا ريب يكون قادراً بالبداية ، لأن فعل العالم المريد فيما علم وأراد ، إنما يكون بسلطة له على الفعل . ولا معنى للقدرة إلا هذا السلطان .

الاختيار

ثبوت هذه الصفات الثلاث يستلزم بالضرورة ثبوت الاختيار ، إذ لا معنى له إلا إصدار الأثر بالقدرة على مقتضى العلم وعلى حكم الإرادة فهو الفاعل المختار ، ليس من أفعاله ولا من تصرفه في خلقه ما يصدر عنه بالعلية المحضة والاستلزام الوجودى بدون شعور ولا إرادة . وليس من مصالح الكون ما يلزمه مراعاته لزوم تكليف بحيث لولم يراعها لتوجه عليه النقد فيأتيه تنزهها عن اللائمة . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . ولكن نظام الكون ومصالحه العظمى إنما تقررت له بحكم أنه أثر الوجود الواجب الذى هو أكمل الوجودات وأرفعها . فالكمال فى الكون إنما هو تابع لكمال المكون ، وإتقان الابداع

إنما هو مظهر لسمو مرتبة المبدع - وبهذا الوجود البالغ أعلى غايات النظام تعلق العلم الشامل والإرادة المطلقة فصدر ويصدر على هذا النمط الرفيع (٢٣ : ١١٥) أحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ؟ وهذا هو معنى قولهم : إن أفعاله لا تعلل بالأغراض ، ولكنها تنزه عن العبث . ويستحيل أن تخلو من الحكم وإن خفي شيء من حكمها عن الأنظار ^(١)

الوحدة

وبما يجب له صفة الوحدة ذاتاً ووصفاً ووجوداً وفعلاً . أما الوحدة الذاتية فقد أثبتناها فيما تقدم بنى التركيب في ذاته خارجاً وعقلاً . وأما الوحدة في الصفة ، أى أنه لا يساويه في صفاته الثابتة له وجود فلما بينا من أن الصفة تابعة لمرتبة الوجود وليس في الموجودات ما يساوى واجب الوجود في مرتبة الوجود ، فلا يساويه فيما يتبع الوجود من الصفات . وأما الوحدة في الوجود وفي الفعل ونعني بها التفرد بوجود الوجود وما يتبعه من إيجاد الممكنات فهي ثابتة لأنه

(١) قد تخفى حكمة الشيء عن البشر زمناً طويلاً ثم تظهر كما ثبت كثيراً . وصفة الاختيار تبطل قول القائلين بأن العالم كآلة الميكانيكية

لأنه لو تعدد واجب الوجود لكان لكل من الواجبين تعين يخالف تعين الآخر بالضرورة وإلا لم يتحصل معنى التعدد. وكلما اختلفت التعينات اختلفت الصفات الثابتة للذوات المتعينة. لأن الصفة إنما تعين وتنال تحققها الخاص بها بتعين ما ثبتت له بالبدهة. فيختلف العلم والإرادة باختلاف الذوات الواجبة، إذ يكون لكل واحدة منها علم وإرادة يباينان علم الأخرى وإرادتها، ويكون لكل واحدة علم وإرادة يلائمان ذاتها وتعينها الخاص بها.

هذا التخالف ذاتي لأن علم الواجب وإرادته لازمان لذاته من ذاته، لا لأمر خارج، فلا سبيل إلى التغير والتبدل فيهما كما سبق، وقد قدمنا أن فعل الواجب إنما يصدر عنه على حسب علمه وحكم إرادته فيكون فعل كل صادراً على حكم يخالف الآخر مخالفة ذاتية، فلو تعدد الواجبون لتخالفت أفعالهم بتخالف علومهم وإراداتهم، وهو خلاف استحيل معه الوفاق، وكل واحد بمقتضى وجوب وجوده وما يتبعه من الصفات له السلطة على الایجاد في عامة الممكنات، فكل له التصرف في كل منها على حسب علمه وإرادته، ولا مرجح لنفاذ إحدى القدرتين دون الأخرى فتتضارب أفعالهم حسب التضارب في علومهم وإراداتهم فيفسد نظام الكون، بل يستحيل أن يكون له نظام، بل يستحيل وجود ممكن من الممكنات، لأن وجود كل ممكن لا بد أن يتعلق به

الإيجاد على حسب العلوم والإرادات المختلفة، فيلزم أن يكون للشيء الواحد وجودات متعددة وهو محال — فلو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا^(١) لكن الفساد يمتنع بالبداهة. فهو جل شأنه واحد في ذاته وصفاته ، لا شريك له في وجوده ولا في أفعاله .

(١) تقرير لكون قوله تعالى (٢١ ، ٢٢) لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) برهاناً قطعياً لا دليلاً إقناعياً كما زعم من لم يفهم الآية والمراد بقوله «فيهما» السموات والأرض المذكورتان في آية سابقة قرينة وهذا الوجه من التوحيد قد ضل فيه بعض البشر فزعموا أن للنخيل والنور إلهاً وللشجر والظلمة إلهاً. وقال آخرون بعدة أرباب تعبد. وما قبله بحث فلسفي في الوحدة قلنا يحتاج إليه أحد في هذا العصر ولا سيما نفي التركيب في الذات إلا إذا عد منه التثليث عند النصارى وبعض الهندوس وذلك غير ظاهر . وسكت هنا عن التوحيد الأعظم الذي تدل عليه كلمة لا إله إلا الله وهو عبادة الله وحده وعدم عبادة غيره ، لأن هذا بحث كلامي فلسفي وليسكنه تكلم عليه في مواضع أخرى كالكلام في أفعال العباد وفي الكلام عما جاء به الإسلام بعد بحث الرسالة العامة

الصفات السمعية

التي يجب الاعتقاد بها

ما قدمنا من الصفات التي يجب الاعتقاد بثبوتها لواجب الوجود
هى ما أرشد إليه البرهان وجاءت الشريعة الإسلامية وما تقدمها من
الشرائع المقدسة لتأييده والدعوة إليه بلسان نبينا محمد صلى الله عليه
وسلم ولسان من سبقه من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين :

ومن الصفات ما جاء ذكره على لسان الشرع ولا يحيله العقل
إذا حمل على ما يليق بواجب الوجود ، ولكن لا يهتدى إليه النظر
وحده " ويجب الاعتقاد بأنه جل شأنه متصف بها اتباعا لما قرره
الشرع وتصديقا لما أخبر به

فمن تلك الصفات : صفة الكلام . فقد ورد أن الله كلم بعض
أنبيائه ونطق القرآن بأنه كلام الله . فصدر الكلام المسموع عنه

(١) فيه أن النظر العقلى قد اهتدى إليه وبناه على القاعدة التى أشار
إليها فى الكلام على صفة الحياة ، وهى أن كل كمال وجودى محض يجب
أن يتصف به واجبا الوجود ، وفصله ابن تيمية برسالة خاصة

سبحانه لا بد أن يكون شأناً من شئونه قديماً بقدمه (١)

(١) إن الله تعالى جعل للناس طرقاً عامة كالحواس والعقل يكسبون بها العلم كسباً فينالون منه بحسب استعدادهم واجتهادهم . واختص من شاء من المصطفين بعلم ينزله على قلوبهم ويفيضه على أرواحهم بلا كسب منهم فالعلم هو القوة أو الصفة التي تنكشف بها المعلومات للنفس بكسب أو بغير كسب وفيها قوة أخرى تتصرف بها في المعلومات وتصورها بصور قابلة لعلام قابل العلم بها ، فيها يتمكن الإنسان من إفادة غيره ما شاء من علمه وهي صفة الكلام ، فما كان منه في النفس يسمى كلاماً نفسياً ويعبر عنه بالقول والكلام والحديث فيقول قلت في نفسي كذا وحدتني نفسي وقال عمر يوم السقيفة : زورت في نفسي كلاماً - وما تحصل به الإفادة والاعلام بالفعل من قول أو كتابة أو غيرهما ويوجه إلى من يراد إعلامه به فيعلمه يسمى كلاماً لفظياً ، وقد استعير لفظ العلم الذي يستعمله البشر في أنفسهم للعلم الإلهي المحيط بكل شيء ، واستعير لفظ الكلام للشان الإلهي الذي به يوحى الله إلى ملائكته ورسله ما شاء من العلم ويكلم من شاء ووحياً من وراء حجاب ، فقيل . إن الله كلاماً هو صفة له أي شأن من شئونه هو مصدر الوحي وإفادة العلم للأنبياء والملائكة ، وسعى ما يوحى إليهم كلاماً أيضاً . وليس في اللغة لفظ يعبر به عن ذلك يقوم مقام هذا اللفظ المستعمل في كلام الناس مع العلم بنزاهة كلام الله النفس عن مشابهة كلام الناس كعلمه وعلمهم وقدرته وقدرتهم . فالكلام النفسي صورة العلم الذاتي في النفس كما أن العلم صورة للعلوم فيها . ولذلك كان كلامه تعالى لا نهاية له كعلمه ، فكلام الله صفة ذاتية له تتعلق بكل ما في علمه وبكشف ما شاء من علمه من شاء من خلقه وهو التكليم . كما أن علمه صفة ذاتية له تتعلق بكل شيء . تتعلق انكشاف وإدراك من غير سبق خفاء ، فالكلام كمال وجودي محض لو لم يكن الخالق =

أوضح مثال لكون القرآن كلام الله ووحيه. صفنا السمع والبصر ٤٧

وما ثبت له بالنقل صفة البصر: وهي ما به تنكشف المبصرات

==متصفا به لكان ناقصاً (سبحانه) بفقده في الأزل له، ولكان غيره من الموجودات كالإنسان أكل منه على ما سبق بيانه في صفة الحياة تعالى الله عن ذلك. فالكلام هو الوصف الفاصل بين الإنسان والحيوان وقد احتج الله على بطلان ألوهية عجل بنى إسرائيل بقوله (أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا. ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً) وإنما الإله الحق هو الذى يملك هدايتهم بكلامه وضرهم ونفعهم بقدرته، ولو خلق الله تعالى في نفس الملك أو النبي علماً بما أراد إعلامه به لم يكن صادراً عن كلامه النفسى ومرآة له لما صح أن يسمى هذا العلم كلاماً لله تعالى، كما أن سائر علوم الخلق الضرورية التى لا كسب لهم فيها من خلقه تعالى ولا تسمى كلاماً له. وكذلك الكسبية بالأولى

هذا وإن لا يحياء كلامه تعالى إلى الملائكة صورة روحية غير الصورة التى يوحىها الملك للرسول من البشر، والرسول يبلغها للناس بصورة أخرى هى كلامهم اللفظى، والمعنى للكل الذى هو العلم الذى أراد الله تعالى إظهارهم عليه واحداً لا يتغير باختلاف صورته ولا يصح أن يعزى إلى غيره فالشاعر الذى علم أن كل شىء ما خلا الله باطل (لأنه لا وجود له ولا بقاء بذاته لذاته) وأن كل نعيم في الدنيا زائل، وتمثل له هذا المعنى بقوله.

ألا كل شىء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

قد نطق بهذا البيت بلفظه، بعد أن تمثل في نفسه، ثم تناقله عنه الناس بألسنتهم وخطوطهم قرناً بعد قرن، وكلهم يعزونه إليه وأنه من كلامه، وأن النطق به وكتابته الآن لا ينفي أنه كلام له قبل منذ بضعة عشر قرناً — فهذا أوضح مثال لكون القرآن كلام الله الذى أوحاه إلى محمد وسوله ﷺ صادراً عن كلامه النفسى، وأن حدوث الوحي به قبل الهجرة بثلاث عشرة سنة وتلاوته بالألسنة وكتابته وطبعه ==

وصفة السمع، وهى ما به تنكشف المسموعات، فهو السميع البصير.

== فى المصاحف قرنا بعد قرن لا يتساقى كونه هو كلامه وأنه قديم بقدمه ، على أن السلف لم يقولوا إنه قديم لأن نص الشارع لم يرد به وقد أغلظوا التكبير على من قالوا إنه مخلوق وحادث بشبهة حدوث إيجاته وتنزيله وتلاوته ، لأن الحامل لهم عليه إنكار صفات الله تعالى جملة وتفصيلا بشبهة استلزام إثباتها لتعدد القدماء ، وهى نظرية فلسفية مخترعة باطلة وضعوها وحكموها فى صفات الله تعالى وكلامه المنزل غلوا فى التنزيه انتهى بهم إلى جعله عز وجل ماهية خيالية سلبية فاقدة لكل صفات الوجود ، وكذا نظرية امتناع قيام الحادث بالقديم ، وإنما التنزيه الصحيح أنه تعالى موجود متصف بجميع صفات الكمال الوجودية ، ومنها الكلام والتكليم ، بغير تعطيل ولا تمثيل . وقد اهتدى البشر إلى بيان ما فى أنفسهم من الكلام لمن يريدون لإعلامه بمعناه بطريقة سريعة خفية يكلم بها المرء غيره وهو يبعد عنه ألوفا من الأميال بلا صوت وذلك ما يعرف بالتلغراف السلكى واللاسلكى ، وما يؤدى به يسمى كلاما أيضا، فهذا أظهر مثال يضرب للوحى، وتنزيه كلام الله عن مشابة كلام الخلق، ثم اهتدوا إلى اختراع آلة أخرى تنقل الأصوات والكلام من قطر إلى قطر وإن بعدت المسافات سموها الراديو وسميناها المذياع

وقد حذفنا من هذا الموضع نحو صفحة من الرسالة فى مسألة الخلاف فى خلق القرآن عملا بأمر المؤلف إذ كتب بخطه فى طرة نسخه ما نصه «فى الطبعة الثانية يحذف القول فى خلق القرآن، وبين لنا السبب فى ذلك فى الدرس فقال إنه ألزم فى الرسالة مذهب السلف وهذه المسألة من البدع التى ليست من مذهبهم وكان الذى ذكره بذلك الشيخ محمد محمود الشنقيطى «رح، فأذعن وذكر ذلك فى الدرس وقد توهنا بذلك فى مقالة للنار عنوانها «سجاياء العلماء ، وما شرحناه تصوير الحقيقة المثبتة لمذهب السلف «لداحضة لبدعة المعتزلة بما يقبله العقل والوجدان السليمان والله الحمد

لكن علينا أن نعتقد أن هذا الانكشاف ليس بآلة ولا جارية ولا حدة ولا باصرة بما هو معروف لنا ^(١).

كلام في الصفات اجمالا

أبتدىء الكلام فيما أقصد بذكر حديث إن لم يصح فكتاب الله بجملة وتفصيله يؤيد معناه وهو قوله صلى الله عليه وسلم « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا » ^(٢).

(١) وكذلك علمه تعالى ليس بآلة الدماغ ولا بوجدان القلب
(٢) الحديث ورد بألفاظ يتفق معناها قال الحافظ العراقي في تخریج أحاديث الأحياء : روى أبو نعيم في الحلية المرفوع منه بإسناد ضعيف، ورواه الأصبهاني في الترغيب والترهيب من وجه آخر أصح منه، ورواه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر وقال هذا إسناد فيه نظر . قلت : فيه الوازع بن نافع متروك اه زاد الزبيدي في الشرح . قلت : حديث ابن عمر لفظه « تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله » هكذا رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التفكير وأبو الشيخ في العظمة والطبراني في الأوسط وابن عدي وابن مردويه والبيهقي وضعفه والأصبهاني وأبو نصر في الإبانة وقال غريب ورواه أبو الشيخ من حديث ابن عباس « تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فانكم لا تقدرون قدره » ورواه ابن النجار والرافعي من حديث أبي هريرة « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله » الخ وتعدد هذه الروايات واجتماعها يكسبها قوة والمعنى صحيح . كما قال الحافظ السخاوي في المقاصد الحسنة اه

إذا قدرنا عقل البشر قدره وجدنا غاية ما ينتهي إلى كماله إنما هو الوصول إلى معرفة عوارض بعض الكائنات التي تقع تحت الإدراك الإنساني حساً كان أو وجداناً أو تعقلاً، ثم التوصل بذلك إلى معرفة مناشئها، وتحصيل كليات لأنواعها، والإحاطة ببعض القواعد لعروض ما يعرض لها. وأما الوصول إلى كنهه^(١) حقيقة ما فيها لا تبلغه قوته. لأن اكتناه المركبات^(٢) إنما هو باكتناه ما تركبت منه، وذلك ينتهي إلى البسيط الصرف وهو لا سبيل إلى اكتناؤه بالضرورة وغاية ما يمكن عرفانه منه هو عوارضه وآثاره.

خذ أظهر الأشياء وأجلها كالضوء، قرر الناظرون فيه له أحكاماً كثيرة فصلوها في علم خاص به ولكن لم يستطع ناظر أن يفهم ماهو

-
- (١) كنه الشيء: جوهره وحقيقته وغايته ومعرفة الكنه هي معرفة الإحاطة التي ليس وراءها غاية يبحث عنها
- (٢) الاكتناه معرفة الكنه، مثال ذلك اكتناه الماء هو معرفة ما تركب منه، وهو عنصران بسيطان بحسب ما وصل إليه علم من اكتشف هذا التركيب، يسمونها الأوكسجين والادروجين، فنقول الماء سائل شفاف مركب من الأوكسجين والادروجين على نسبة معينة. فيشبه هذا أو يقرب أن يكون اكتناها لهذا المركب لمن اكتنه جزأيه ولكن اكتناه البسيط كالادروجين بما لا سبيل إليه كما قال المصنف

ولا أن يكتنه معنى الإضاءة نفسه ، وإنما يعرف من ذلك ما يعرفه كل بصير له عينان ، وعلى هذا القياس .

ثم إن الله لم يجعل للإنسان حاجة تدعو إلى اكتناه شيء من الكائنات ، وإنما حاجته إلى معرفة العوارض والخواص ، ولذة عقله إن كان سليماً إنما هي تحقيق نسبة تلك الخواص إلى ما اختصت به وإدراك القواعد التي قامت عليها تلك النسب ، فلا اشتغال بالاكتناه إضاءة للوقت وصرف للقوة إلى غير ما سبقت إليه .

اشتغل الإنسان بتحصيل العلم بأقرب الأشياء إليه وهي نفسه : أراد أن يعرف بعض عوارضها وهل هي عرض أو جوهر ؟ هل هي قبل الجسم أو بعده ؟ هل هي فيه أو مجردة عنه ؟ كل هذه الصفات لم يصل العقل إلى إثبات شيء منها يمكن الاتفاق عليه ، وإنما مبلغ جهده أنه عرف أنه موجود حتى له شعور وإرادة ، وكل ما أحاط به بعد ذلك من الحقائق الثابتة فهو راجع إلى تلك العوارض التي وصل إليها بديهته أما كنهه شيء من ذلك . وبلى وكيفية اتصافه ببعض صفاته فهو مجهول عنده ولا يجد سبيلاً للعلم به

هذا حال العقل الإنساني مع ما يساويه في الوجود أو ينحط عنه . بل كذلك شأنه فيما يظن من الأفعال أنه صادر عنه كالفكر .

٥٢ تناول الفكر إلى معرفة كنهه تعالى عبث ومهلكة

وارتباطه بالحركة والنطق ، فما يكون من أمره بالنسبة إلى ذلك الوجود الأعلى ؟ ماذا يكون دهشه بل انقطاعه إذا وجه نظره إلى مالا يتناهى من الوجود الأزلى الأبدى ؟ ،

النظر فى الخلق يهدى بالضرورة إلى المنافع الدنيوية ويضىء للنفس طريقها إلى معرفة من هذه آثاره ، وعليها تجلت أنواره ، وإلى انصافه بما لولاه لما صدرت عنه هذه الآثار على ما هى عليه من النظام ، وتخالف الأنظار فى الكون إنما هو من تصارع الحق والباطل ولا بد أن يظفر الحق ويعلو على الباطل بتعاون الأفكار أو صولة القوى منها على الضعيف .

وأما الفكر فى ذات الخالق : فهو طلب للاكتناه من جهة وهو ممتنع على العقل البشرى لما علت من انقطاع النسبة بين الوجودين ولاستحالة التركب فى ذاته ، وتناول إلا مالا تباخه القوة البشرية من جهة أخرى ، فهو عبث ومهلكة : عبث لأنه سعى إلا مالا يدرك ، ومهلكة لأنه يؤدي إلى الخبط فى الاعتقاد ، لأنه تحديد لما لا يجوز تحديده ، وحصر مالا يصح حصره .

لا ريب أن هذا الحديث وما أتينا عليه من البيان كما يأتى فى الذات من حيث هى يأتى فيها مع صفاتها . فالنهى واستحالة الوصول إلى الاكتناه شاملان لها ، فيكفيها من العلم بها أن نعلم أنه متصف بها ،

وأما ما وراء ذلك فهو مما يستأثر هو بعلمه ولا يمكن لعقولنا أن تصل إليه، ولهذا لم يأت الكتاب العزيز وما سبقه من الكتب إلا بتوجيه النظر إلى المصنوع لينفذ منه إلى معرفة وجود الصانع وصفاته الكمالية وأما كيفية الاتصاف فليس من شأننا أن نبحث فيها .

فالذي يوجه علينا الإيمان هو أن نعلم أنه موجود لا يشبه الكائنات ، أزلى أبدي حتى عالم مرید قادر ، متفرد في وجوب وجوده، وفي كمال صفاته ، وفي صنع خلقه . وأنه متكلم سميع بصير، وما يتبع ذلك من الصفات التي جاء الشرع بإطلاق أسمائها عليه .

أما كون الصفات زائدة على الذات ، وكون الكلام صفة غير ما اشتمل عليه العلم من معاني الكتب السماوية . وكون السمع والبصر غير العلم بالمسموعات والمبصرات ، ونحو ذلك من الشئون التي اختلف فيها النظائر ، وتفرقت فيها المذاهب . فما لا يجوز الخوض فيه، إذ لا يمكن لعقول البشر أن تصل إليه ، والاستدلال على شيء منه بالألفاظ الواردة ضعف في العقل، وتغيير بالشرع، لأن استعمال اللغة لا ينحصر في الحقيقة ، ولئن انحصر فيها فوضع اللغة لا تراعى فيه الوجودات بكنها الحقيقي — وإنما تلك مذاهب فلسفة إن لم يضل فيها أمتلهم فلم يهتد فيها فريق إلى مقنع ، فما علينا إلا الوقوف عند ما تبلغه عقولنا ، وأن نسأل الله أن يغفر لمن آمن به وبما جاء به رسله ممن تقدمنا من الخائضين .

أفعال الله جل شأنه

أفعال الله صادرة عن عليه وإرادته كما سبق تقريره، وكل ما صدر عن علم وإرادة فهو عن الاختيار، ولا شيء مما يصدر عن الاختيار بواجب على المختار لذاته، فلا شيء من أفعاله بواجب الصدور عنه لذاته بجميع صفات الأفعال من خلق ورزق وإعطاء ومنع وتعذيب وتنعيم مما يثبت له تعالى بالإمكان الخاص (١) فلا يطوفن بعقل عاقل بعد تسليم أنه فاعل عن علم وإرادة أن يتوهم أن شيئاً من أفعاله واجب عنه لذاته كما هو الشأن في لوازم الماهيات أو في انصاف الواجب بصفاته مثلاً — فإن ذلك هو التناقض البديهي الاستحالة كما سبق الإشارة إليه .

بقيت علينا جولة نظر في تلك المقالات الحق التي اختبط فيها القوم اختباط إخوة تفرقت بهم الطرق في السيل إلى مقصد واحد، ثم التقوا في غسق الليل فصاح كل فريق بالآخر صيحة المستخبر. فظن كل أن الآخر عدو يريد مقارعتة على ما يده، فاستحرن بينهم القتال

(١) والإمكان الخاص، عبارة عن كون كل من إيجاب ذلك وسلبه غير ضروري أي لا يمتنع فعله عقلاً ولا يتحتم

ولا زالوا يتجالدون حتى تساقط جلهم دون المطلب ، ولما أسفر الصبح وتعارفت الوجوه رجع الرشد إلى من بقي وهم الناجون ، ولو تعارفوا من قبل لتعاونوا جميعاً على بلوغ ما أملوا ، ولو افقه الغاية إخوانا بنور الحق مهتدين .

نريد تلك المقالات المضطربة في أنه يجب على الله رعاية المصلحة في أفعاله وتحقيق وعيده . فيمن تعدى حدوده من عبيده ، وما يتلو ذلك من وقوع أعماله تحت العلل والأغراض ، فقد بالغ قوم في الإيجاب حتى ظن الناظر في مزاعمهم أنهم عدوه واحداً من المكلفين يفرض عليه أن يجهد للقيام بما عليه من الحقوق وتأدية ما لزمه من الواجبات . تعالى عن ذلك علواً كبيراً . وغلا آخرون في نفي التعليل عن أفعاله حتى خيل للسمع في مقالاتهم أنهم لا يرضونه إلا قلباً يبرم اليوم ما نقضه بالأمس . ويفعل غداً ما أخبر بنقضه اليوم أو غافلاً لا يشعر بما يستتبعه عمله (سيحان ربك رب العزة عما يصفون) وهو أحكم الحاكمين . وأصدق القائلين . جبروت الله وطهارة دينه أعلى وأرفع من هذا كله .

اتفق الجميع على أن أفعاله تعالى لا تخلو من حكمة . وصرح الغلاة والمقصرون جميعاً بأنه تعالى منزّه عن العبث في أفعاله . والكذب

في أقواله ، ثم بعد هذا أخذوا يتنازبون بالألفاظ ، ويتهارون في الأوضاع ولا يدري إلى أى غاية يقصدون ، فلناخذ ما اتفقوا عليه . ولنرد إلى حقيقة واحدة ما اختلفوا فيه .

حكمة كل عمل ما يترتب عليه بما يحفظ نظاماً أو يدفع فساداً خاصاً كان أو عاماً لو كشف للعقل من أى وجه لعقله وحكم بأن العمل لم يكن عبثاً ولعباً ، ومن يزعم للحكمة معنى لا يرجع إلى هذا حاكناً إلى أوضاع اللغة وبداهة العقل - لا يسمى ما يترتب على العمل حكمة ولا يتمثل عند العقل بمثلها إلا إذا كان ما يتبع العمل مراداً لفاعله بالفعل ، وإلا لعد النائم حكيماً فيما لو صدرت منه حركة في نومه قتلت عقرباً كادت تلسع طفلاً ، أو دفعت صبيّاً عن حفرة كاد يسقط فيها ، بل لو سم بالحكمة كثير من العجاوات إذا استتبع حركاتها بعض المنافع الخاصة أو العامة ، والبداهة تأباه .

من القواعد الصحيحة المسلمة عند جميع العقلاء « أن أفعال العاقل تصان عن العبث ، ولا يريدون من العاقل إلا العالم بما يصدر عنه بإرادته ، ويريدون من صونها عن العبث أنها لا تصدر إلا لأمر يترتب عليها يكون غاية لها ، وإن كان هذا في العاقل الحادث فما ظنك بموجد كل عقل ، ومنتهى الكمال في العلم والحكم ؟ هذه كلها مسلمات لا ينازع فيها أحد .

صنع الله الذي أتقن كل شيء^(١) وأحسن خلقه^(٢) مشحون بضروب الحكم، ففيه ما قامت به السموات والأرض وما بينهما وحفظ به نظام الكون بأسره، وما صانه عن الفساد الذي يقضى به إلى العدم، وفيه ما استقامت به مصلحة كل موجود على حدته، خصوصاً ما هو من الموجودات الحية كالنبات والحيوان، ولولا هذه البدائع من الحكم ما تيسر لنا الاستدلال على علمه.

فهذه الحكم التي نعرفها الآن بوضع كل شيء في موضعه وإيتاء كل محتاج ماله إليه الحاجة، إما أن تكون معلومة له مرادة مع الفعل أم لا^(٣) لا يمكن القول بالثاني، وإلا لكان قولاً بقصور العلم إن لم تكن معلومة، أو بالنفلة إن لم تكن مرادة. وقد سبق تحقيق أن علمه وسع كل شيء واستحالة غيبة أثر من آثاره عن إرادته، فهو يريد الفعل ويريد ما يترتب عليه من الحكمة، ولا معنى لهذا إلا إرادته للحكمة من حيث هي تابعة للفعل، ومن المحال أن تكون الحكمة غير مرادة بالفعل مع العلم بارتباطها به، فيجب الاعتقاد بأن أفعاله يستحيل أن تكون خالية من الحكمة، وبأن الحكمة يستحيل أن تكون غير

(١) مقتبس من سورة النمل ٢٧ : ٨٨

(٢) من «الم»، السجدة ٣٢ : ٧

(٣) الظاهر التعبير بأولا

مرادة ، إذ لو صح توهم أن ما يترتب على الفعل غير مراد لم يعد ذلك من الحكمة كما سبق .

فوجوب الحكمة في أفعاله تابع لوجوب النكال في علمه وإرادته وهو مما لا نزاع فيه بين جميع المتخالفين . وهكذا يقال في وجوب تحقق ما أوعده ووعد به ، فإنه تابع لنكال علمه وإرادته وصدقه وهو أصدق القائلين (١) وما جاء في الكتاب أو السنة بما قد يؤهم خلاف ذلك يجب إرجاعه إلى بقية الآيات وسائر الآثار حتى ينطبق الجميع إلى ما هدت إليه البدييات السابق لإرادها وعلى ما يليق بكمال الله وبالعظمى وحكمته وجليل عظمته . والأصل الذي يرجع إليه كل وارد في هذا الباب قوله تعالى (١٦: ٢١) وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا لعبين (١٧) لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين (١٨) بل نقف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون) .

وقوله « لاتخذناه من لدنا ، أى لصدر عن ذاتنا المتفردة بالكمال المطلق لا يشوبه نقص وهو محال . و « إن ، في قوله

(١) كتب المصنف في طرة نسخته هنا ما نصه . ولا يقال . إن غاية حكمته الوجوب عليه ، لأنه هو جاعل الغاية وذر الغاية وكون الغاية غاية لأنه المبدع الذي لا يتأثر بشئ ولا يحكم عليه أمر ما أَراد

« إن كنا فاعلين ، نافية وهو نتيجة القياس السابق (١) »

بقى أن الناظرين في هذه الحقائق ينقسمون إلى قسمين : فمنهم من يطلب علمها لأنه شهوة العقل وفيه لذته - فهذا القسم يسمى المعاني بأسمائها ، ولا يبالي جوز شرع إطلاقها في جانب الله أم لم يجوز ، فيسمى الحكمة غاية وغرضا وعلّة غائية ورعاية المصلحة ، وليس من رأيه أن يجعل لقلبه عنانا يرده عن إطلاق اسم متى صح عنده معناه . وقد يعبر بالواجب عليه بدل الواجب له غير مبال بما يورمه اللفظ .

ومنهم من يطلب علمها مع مراعاة أن ذلك دين يتعبد به واعتقاد بشئون لإله عظيم ، يعبد بالتحميد والتعظيم ، ويجب الاحتياط في تنزيهه ولو بعفة اللسان عن النطق بما يورم نقصاً في جانبه ، فيتبرأ من تلك الألفاظ مفرداها ومركبا ، فإن الوجوب عليه يوم التكليف والإلزام ، وبعبارة أخرى يوم القهر والتأثر بالأغيار ، ورعاية المصلحة توهم إعمال النظر وإجالة الفكر . وهما من لوازم النقص في العلم ، والغاية والعلّة الغائية والغرض توهم حركة في نفس الفاعل من قبل البدء في العمل إلى نهايته ، وفيها ما في سوابقها . ولكن الله أكبر هل يصح أن تكون سعة المجال ، أو التعفف في المقال ، سببا في التفرقة بين المؤمنين وتمارينهم في الجدال حتى ينتهي بهم التفرق إلى ما صاروا إليه من سوء

(١) القياس هو قوله في صحيفة ٥٧ فهذه الحكم التي نعرفها الآن الخ

أفعال العباد

كما يشهد سليم العقل والحواس من نفسه أنه موجود ولا يحتاج في ذلك إلى دليل يهديه ولا معلم يرشده . كذلك أنه مدرك لأعماله الاختيارية . يزن نتائجها بعقله ويقدرها بارادته ، ثم يصدرها بقدره ما فيه وبعد إنكار شيء من ذلك مساويا لإنكار وجوده في مجافاته لبداهة العقل .

كما يشهد بذلك (١) في نفسه يشهده أيضا في بنى نوعه كافة متى كانوا مثله في سلامة العقل والحواس ، ومع ذلك فقد يريد إرضاء خليل فيغضبه ، وقد يطلب كسب رزق فيفوته ، وربما سعى إلى منجاة فسقط في مهلكة ، فيعود باللائمة على نفسه إن كان لم يحكم النظر في تقدير فعله ، ويتخذ من خيبته أول مرة مرشداً له في الأخرى ، فيعاود العمل من طريق أقوم ، وبوسائل أحكم ، ويتقد غيظه على من حال بينه وبين ما يشتهي إن كان سبب الاخفاق في المسعى منازعة منافس له في مطلبه ، لوجدانه من نفسه أنه الفاعل في حرمانه فينبى لمناضلته ، وتارة يتجه إلى أمر أسى من ذلك إن لم يكن لتقصيره أو

(١) الظاهر حذف الباء فإنه من شهود الشيء لا الشهادة به كما في سابق القول ولاحقه .

للمنافسة غيره دخل فيما لقي من مصير عمله ، كأن هبريخ فأغرق (١) بضاعته ، أو نزلت صاعقة فأحرقت ماشيته ، أو علق أمله بمعين فمات أو بذى منصب فعزل . يتجه من ذلك إلى أن في الكون قوة أسمى من أن تحيط بها قدرته ، وأن وراء تدبيره سلطانا لاتصل إليه سلطته فإن كان قد هداه البرهان وتقويم الدليل إلى أن حوادث الكون بأسره مستندة إلى واجب وجود واحد يصرفه على متقضى عليه وإرادته ، خشع وخضع ، ورد الأمر إليه فيما لقي ، ولكن مع ذلك لا ينسى نصيبه فيما بقي ، فالؤمن كما يشهد بالدليل وبالعيان أن قدرة مكون الكائنات أسمى من قوى الممكنات . ويشهد بالبدهة أنه في أعماله الاختيارية - عقلية كانت أو جسمانية قائم بتصرف ما وهب الله له من المدارك والقوى فيما خلقت لأجله ، وقد عرف القوم شكر الله على نعمه ، فقالوا : هو صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه إلى ما خلق لأجله .

على هذا قامت الشرائع ، وبه استقامت التكاليف . ومن أنكر شيئاً منه فقد أنكر مكان الإيمان من نفسه ، وهو عقله الذي شرفه الله بالخطاب في أوامره ونواهيه .

(١) الریح مؤتة وقد ذهل المؤلف عن تصحيحه ولم يتركه لأن التأنيث مجازي .

أما البحث فيما وراء ذلك من التوفيق بين ما قام عليه الدليل من إحاطة علم الله وإرادته ، وبين ما تشهد به البداهة من عمل المختار ، فيما وقع عليه الاختيار ، فهو من طلب سر القدر الذى نهينا عن الخوض فيه ، واشتغال بما لا تكاد تصل العقول إليه ، وقد خاض فيه الغالون من كل ملة خصوصاً من المسيحيين والمسلمين ، ثم لم يزالوا بعد طول الجدل وقوفاً حيث ابتدءوا ، وغاية ما فعلوا أن فرقوا وشتتوا ، ففهم القائل بسلطة العبد على جميع أفعاله واستقلاله المطلق وهو غرور ظاهر ، ومنهم من قال بالجبر وصرح به ، ومنهم من قال به وتبرأ من اسمه ، وهو هدم للشرعة ، ومحو للتكاليف ، وإبطال لحكم العقل البديهي وهو عماد الإيمان .

ودعوى أن الاعتقاد بنكسب العبد لأفعاله يؤدي إلى الإشراف بالله — وهو الظلم العظيم — دعوى من لم يلتفت إلى معنى الإشراف على ما جاء به الكتاب والسنة ، فالإشراف اعتقاد أن لغير الله أثراً فوق ما وهبه الله من الأسباب الظاهرة ، وأن لشيء من الأشياء سلطاناً على ما خرج عن قدرة المخلوقين ، وهو اعتقاد من يعظم سوى الله مستعيناً به فيما لا يقدر العبد عليه — كالاستنصار في الحرب بغير قوة الجيوش ، والاستشفاء من الأمراض بغير الأدوية التى هدانا الله إليها ، والاستعانة على السعادة الآخروية أو الدنيوية

كسب العبد بإرادته ورجوع كل شيء إلى قدرة الخالق ٦٣

بغير الطرق والسنن التي شرعها الله لنا .

هذا هو الشرك الذي كان عليه الوثنيون ومن مائلهم فجاءت الشريعة الإسلامية بمحوه ، ورد الأمر فيما فوق القدرة البشرية والأسباب الكونية إلى الله وحده ، وتقرير أمرين عظيمين هما ركنتا السعادة وقوام الأعمال البشرية (الأول) أن العبد يكسب بإرادته وقدرته ، ما هو وسيلة لسعادته (والثاني) أن قدرة الله هي مرجع لجميع الكائنات ، وأن من آثارها ما يحول بين العبد وبين إنفاذ ما يريده ، وأن لا شيء سوى الله يمكن له أن يمد العبد بالمعونة فيما لم يبلغه كسبه .

جاءت الشريعة لتقرير ذلك وتحريم أن يستعين العبد بأحد غير خالقه في توفيقه إلى إتمام عمله بعد إحكام البصيرة فيه ، وتكليفه أن يرفع همته إلى استمداد العون منه وحده بعد أن يكون قد أفرغ ما عنده من الجهد في تصحيح الفكر وإجادة العمل . ولا يسمح العقل ولا الدين لأحد أن يذهب إلى غير ذلك .

هذا الذي قرناه قد اهتدى إليه سلف الأمة فقاموا من الأعمال بما عجبته له الأمم ، وعول عليه من متأخري أهل النظر إمام الحرمين الجويني (١) رحمه الله وإن أنكر عليه بعض من لم يفهمه .

(١) إمام الحرمين لقب أبي المعالي عبد الملك بن أبي محمد عبد الله بن يوسف الجويني الذي نصر مذهب السلف بالصراحة التامة

أكرر القول بأن الإيمان بوحداية الله لا يقتضى من المكلف إلا اعتقاده أن الله صرفه في قواه ، فهو كاسب لإيمانه ولما كافه الله به من بقية الأعمال ، واعتقاد أن قدرة الله فوق قدرته ، ولها وحدها السلطان الأعلى في إتمام مراد العبد بإزالة الموانع أو تهئية الأسباب المتممة بما لا يعلمه ولا يدخل تحت إرادته .

وأما التطلع إلى ما هو أغمض من ذلك فليس من مقتضى الإيمان كما بينا ، وإنما هو من شره العقول في طلب رفع الاستار عن الأسرار . ولا أنكر أن قوما قد وصلوا بقوة العلم والمثابرة على مجاهدة المدارك إلى ما اطمأنت به نفوسهم وتفشعت به حيرتهم ولكن قليل ما هم — على أن ذلك نور يتمذه الله في قلب من شاء ، ويغص به أهل الولاية والصفاء . وكثر ما ضل قوم وأضلوا وكان لمقاتلتهم أسوأ الأثر فيما عليه حال الأمة اليوم (١) .

لو شئت لقربت البعيد فقلت إن من بالغ الحكم في الكون أن تنوع الأنواع على ما هي عليه في العيان ولا يكون النوع ممتازاً عن غيره حتى تلازمه خواصه ، وكذا الحال في تميز الأشخاص ، فواهب

(١) هم جملة أدياء الولاية بالتصوف التقليدى الذين أفسدوا عقائد العامة بالجبر والخرافات

تعلق العلم بالشيء . تعلق انكشاف لانعلاق إيجاد وإعدام ٦٥

الوجود يهب الأنواع والأشخاص وجودها على ما هي عليه ، ثم كل وجود متى حصل كانت له توابعه ، ومن تلك الأنواع الإنسان ، ومن مميزاته - حتى يكون غير سائر الحيوانات - أن يكون مفكراً مختاراً في عمله على مقتضى فكره ، فوجوده الموهوب مستتبع لمميزاته هذه ، ولو سلب شيء منها لكان إما ملكاً أو حيواناً آخر والفرض أنه الإنسان ، فبهة الوجود له لشيء فيها من القهر على العمل . ثم علم الواجب محيط بما يقع من الإنسان يارادته وبأن عمل كذا يصدر في وقت كذا وهو خير يثاب عليه ، وأن عملاً آخر . شريعاق عليه عقاب الشر . والأعمال في جميع الأحوال حاصلة عن الكسب والاختيار فلا شيء في العلم بسالب للتخير في الكسب ، وكون ما في العلم يقع لاحالة إنما جاء من حيث هو الواقع والواقع لا يتبدل .

ولنا في علومنا الكونية أقرب الأمثال : شخص من أهل العناد يعلم علم اليقين أن عصيانه لأميره باختياره يحل به عقوبته لاحالة لكنه مع ذلك يعمل العمل ويستقبل العقوبة وليس لشيء من علمه وانطباعه على الواقع أدنى أثر في اختياره لا بالمنع ولا بالالزام . فانكشاف الواقع للعالم لا يصح في نظر العقل ملزماً ولا مانعاً . وإنما يريك الوهم تغيير العبارات وتشعب الالفاظ .

(م ه رسالة التوحيد)

ولو شئت لزدت في بيان ذلك ورجوت أن لا يبعد عن عقل ألف النظر الصحيح ولم تقسد فطرته بالمباحكات اللفظية ، لكن يمنعني عن الإطالة فيه عدم الحاجة إليه في صحة الإيمان . وتقاصر عقول العامة عن إدراك الأمر في ذاته مهما بالغ المعبر في الإيضاح عنه ، والتيث قلوب الجمهور من الخاصة بمرض التقليد ، فهم يتعقدون الأمر ثم يطلبون الدليل عليه ولا يريدونه إلا موافقا لما يعتقدون ، فإن جاءهم بما يخالف ما اعتقدوا لبذوه وجوا في مقاومته ، وإن أدى ذلك إلى جحد العقل برمته . فأكثرهم يعتقد فيستدل ، وقلما تجد بينهم من يستدل ليعتقد ، فإن صاح بهم صائح من أعواق سرائرهم « ويل للخابط ، ذلك قلب لسنة الله في خلقه ، وتحرير لهديه في شرعه ، عرثهم هزة من الجزع ، ثم عادوا إلى السكون ، محتجين بأن هذا هو المألوف ، وما أقننا إلا على معروف . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

حسن الأفعال وقبحها

الأفعال الإنسانية الاختيارية لا تخرج عن أن تكون من
الآكوان الواقعة تحت مداركنا ، وما تنفعل به نفوسنا عند
الإحساس بها أو استحضار صورها ، يشابه كل المشابهة ما تنفعل به
عند وقوع بعض الكائنات تحت حواسنا ، أو حضورها في مخيلاتنا
- وذلك بديهى لا يحتاج إلى دليل .

نجد في أنفسنا بالضرورة تمييزاً بين الجليل من الأشياء والقبيح
منها ، فإن اختلفت مشارب الرجال في فهم جمال النساء ، أو مشارب
النساء في معنى جمال الرجال ، فلم يختلف أحد في جمال ألوان
الأزهار وتنضيد أوراق النباتات والأشجار ، خصوصاً إذا كانت
أوضاع الزهر على أشكال تمثل الائتلاف والتناسب بين تلك
الألوان بعضها مع بعض - ولا في قبح الصورة الممثل بها بتشبيها
بعض أجزائها وانقطاع البعض الآخر على غير نظام ، وانفعال
أنفسنا من الجليل بهجة أو إعجاب ومن القبيح اشمئزاز أو جزع ،
وكما يقع هذا التمييز في المبصرات . يقع في غيرها من المسموعات
والملموسات .

والمذوقات والمشهورات ، كما هو معروف لكل حساس من بني آدم يأخذى تلك الحواس .

ليس هذا موضع تحديد ما هو الجمال وما هو القبح في الأشياء . ولكن لا يخالفنا أحد في أن من خواص الإنسان بل وبعض الحيوان التمييز بينهما . وعلى هذا قامت الصناعات على اختلاف أنواعها وبه ارتقى العمران في أطواره إلى الحد الذي نراه عليه الآن ، وإن اختلفت الأنواع - في الأشياء جمال وقبح .

هذا في المحسوسات واضح كما سبق ، وأعله لا ينزل عن تلك الدرجة في الوضوح ما يلزم به العقل من الموجودات المعقولة . وإن اختلف اعتبار الجمال فيها . فالكمال في المعقولات كالوجود الواجب والأرواح اللطيفة وصفات النفوس البشرية له جمال تشعر به أنفس عارفيه وتنبر له بصائر لاحظيه . وللنقص قبح لا تنكره المدارك العالية وإن اختلف أثر الشعور ببعض أطواره في الوجدان . عن أثر الإحساس بالقبيح في المحسوسات ، وهل في الناس من ينكر قبح النقص في العقل . والمقووط في الهمة ، وضعف العزيمة ؟ ويكفى أن أبواب هذه القائص يجاهدون في إخفائها ، ويفخرون أحيانا بأنهم متصفون بأضدادها .

الحسن والقبح في الأفعال الاختيارية كالموجودات الكونية ٦٩

وقد يجعل القبيح بجمال أثره ، ويقبح الجليل بقبح ما يقترن به . فالمرقيح مستبشع ، والملك الدميم المشوه الخلقة ينبو عنه النظر ؛ لكن أثر المر في معالجة المرض ، وعدل الدميم في رعيته أو إحسانه إليك في خاصة نفسك ، يغير من حالتك النفسية عند حضور صورته ، فإن جمال الأثر يلقى على صاحبه أشعة من بهائه فلا يشعر الوجدان منه إلا بالجميل ومثل ذلك يقال في قبح الحلو إذا أضر ، واشتمزاز النفس من الجليل إذا ظلم وأضر .

هل يمكن لعاقل أن لا يقول في الأفعال الاختيارية ، كما قال في الموجودات الكونية ، مع أنها نوع منها ، وتقع تحت حواسنا ومداركنا العقلية إما بنفسها وإما بأثرها ، وتنفعل نفوسنا بما يلح بها منها كما تنفعل بما يرد عليها من صور الكائنات ؟ كلا ، بل هي قسم من الموجودات حكمها في ذلك حكم سائرها بالبداهة .

فن الأفعال الاختيارية ما هو معجب في نفسه تجدد النفس منه ما تجد من جمال الخلق كالحركات العسكرية المنتظمة وتقلب الممررة من اللاعبين في الألعاب المعروفة اليوم « بالجناسيك » وكإيقاع النغمات على القوانين الموسيقية من العارف بها . ومنها ما هو قبيح في نفسه يحس منه ما يحس من رؤية الخلق المشوه كتخبط ضعفاء

٧٠ إدراك الحسن والقبح في اللذة والألم والنفع والضرر

النفوس عند الجزع ، وكولولة النائمات وتقع المدعورين^(١) .
ومنها ما هو قبيح لما يعقبه من الألم ، وما هو حسن لما يجلب
من اللذة أو دفع الألم . فالأول : كالضرب والجرح ، وكل ما يؤلم
من أفعال الإنسان . والثاني : كالأكل على جوع والشرب على
عطش وكل ما يحصل لذة أو يدفع ألماً مما لا يحصى عده . وفي هذا
القسم يكون الحسن بمعنى ما يلد . والقبح بمعنى المؤلم .
وقلما يختلف تمييز الإنسان للحسن والقبح من الأفعال بالمعنيين
السابقين عن تمييز الحيوانات المرتقية في سلسلة الوجود اللهم إلا في
قوة الوجدان وتحديد مرتبة الجمال والقبح .
ومن الأفعال الاختيارية ما يحسن باعتبار ما يجلب من النفع ،
وما يقبح بما يجر إليه من الضرر ، ويختص الإنسان بالتمييز بين الحسن
والقبح بهذا المعنى ، إذا أخذ من أكل وجهاته ، وقلما يشاركه فيه
حيوان آخر ، اللهم إلا من أحط جهاته ، وهو خاصة العقل ، وسر
الحكمة الإلهية في هبة الفكر .

فن اللذيق ما يقبح لشؤم عاقبته كالإفراط في تناول الطعام
والشراب والانتطاع إلى سماع الأغاني والجرى في أعقاب الشهوات ،

(١) نغمهم : صياحهم . يقال : تقع الصوت إذا ارتفع وتقع الصارخ
(كفتح) تقعاً وتقعواً : رفع صوته .

فإن ذلك مفسدة للصحة ، مضیعة للعقل ، مثلفة للمال ، مدعاة للعجز والذل .

وإنما قبح اللذیذ فی هذا الموضوع لقصر مدته وطول مدة ما یجر إلیه عادة من الآلام التي ربما لا تنتهی إلا بالموت على أسوأ حالاته ، ولاحظ النسبة بین متاع اللذة ومقاساة شدائد الألم .

ومن المؤلم ما یحسن كتجشّم مشاق التعب فی الأعمال لكسب الرزق وتأمين النفس على حاجاتها فی أوقات الضعف ، ومجاهدة الشهوات ومقاساة الحرمان من بعض اللذات حینا من الزمن ، لیتوفر للقوى البدنية والعقلية حظها من التمتع بما قدر لها من اللذات على وجه ثابت لا ینحاطله اضطراب ، أو على نمط ینخفض من رزايا الحياة إن عدت الحياة مثاراً لها .

ومن المؤلم الذی عده العقل البشرى حسناً : مقارعة الإنسان عدوه ، سواء كان من نوعه أو من غیره للدافعة عن نفسه ، أو عن أنصاره ، ومنهم بنو أیه ، أو قبیلته ، أو شعبه ، أو أمته — حسب ارتقائه فی الإحساس — ومخاطرته ولو بحیاته فی سبیل ذلك ، كأنه یرى فی بذل هذه الحياة أمناً على حياة أخرى تشعر بها نفسه ، وإن لم ینحددها عقله . ومنه معاناة التعب فی كشف ماعی عن علمه من حقائق الكون . كأنه لا یرى المشقة فی ذلك شیئاً بالقیاس إلى ما یحصل من لذة الاطمئنان على الحق بقدر ماله من الاستطاعة .

٧٢ تفرقة العقل بين النافع والضار والخير والشر

وعد من اللذيد المستقب مح الياء الى ما كسبه الغير بسعيه ، واستشفاء ألم الحقد باآلاف نفس المحقود عليه ، أو ماله ، لما في ذلك من جلب المخافة العامة حتى على ذات المتعدي ، ويمكنك من نفسك استحضار ما يتبع الوفاء بالعهود والعقود والغدر فيها .

كل هذا عرفه العقل البشري وفرق فيه بين الضار والنافع ، وسمى الأول فعل الشر ، والثاني عمل الخير ، وهذا التفريق هو منبأ التمييز بين الفضيلة والذيلة ، وقد حددهما النظر الفكري على تفاوت في الإجمال والتفصيل للتفاوت في درجات عقول الناظرين ، وناط بهما سعادة الإنسان وشقاءه في هذه الحياة ، كما ربط بهما نظام العمران البشري وفساده ، وعزة الأمم وذلتها ، وضعفها وقوتها ، وإن كان المحددون لذلك والآخذون فيه يحظ من الصواب هم العدد القليل من عقلاء البشر .

كل هذا من الأوليات العقلية لم يختلف فيه ملي ولا فيلسوف ، فلا أعمال الاختيارية حسن وقبح في نفسها أو باعتبار أثرها في الخاصة أو في العامة ، والحس أو العقل قادر على تمييز ما حسن منها وما قبح بالمعاني السابقة بدون توقف على سمع ، والشاهد على ذلك ما نراه في بعض أصناف الحيوان ، وما نشهده في أفاعيل الصبيان قبل تعقل ما معنى الشرع وما وصل إلينا من تاريخ الإنسان

وما عرف عنه في جاهليته

وما يحسن ذكره هنا ما شاهده بعض الناظرين في أحوال النمل -
قال : كانت جماعة من النمل تشتغل في بيت لها ^(١) فجاءت نملة -
كأنها القائمة بمراقبة العمل فرأت المشتغلات قد وضعت السقف على
أقل من الارتفاع المناسب فأمرت بهدمه فهدم ، ورفع البنيان إلى
الحد الموافق ، ووضع السقف على أرفع مما كان ، وذلك من
أنقاض السقف القديم . وهذا هو التمييز بين الضار والنافع - فمن
زعم أن لا حسن ولا قبح في الأعمال على الإطلاق فقد سلب
نفسه العقل ، بل عدها أشد حمقاً من النمل (٢)

سبق لنا أن واجب الوجود وصفاته الكمالية تعرف بالعقل ،
فإذا وصل مستدل ببرهانه إلى إثبات الواجب وصفاته غير السمعية
ولم تبلغه بذلك رسالة كما حصل لبعض أقوام من البشر ، ثم انتقل
من النظر في ذلك وفي أطوار نفسه إلى أن مبدأ العقل في الإنسان
يبقى بعد موته كما وقع لقوم آخرين . ثم انتقل من هذا غلطاً أو
مصيباً إلى أن بقاء النفس البشرية بعد الموت يستدعي سعادة لها فيه

(١) كان ينبغي أن يقول قرية لها . (٢) ليه قال أقل علماً من النمل .
وقد روى عن سليمان عليه السلام : كن حكماً كالنملة .

٧٤، استحالة إدراك جميع العقول ما يجب من معرفة الله والسعادة

أو شقاء ثم قال إن سعادتها إنما تكون بمعرفة الله وبالفضائل. وأنها إنما تسقط في الشقاء بالجهل بالله وبارتكاب الرذائل، وبني على ذلك أن من الأعمال ما هو نافع للنفس بعد الموت بتحصيل السعادة، ومنها ما هو ضار لها بعده بايقاعها في الشقاء. فأى مانع عقلي أو شرعي يحظر عليه أن يقول بعد ذلك بحكم عقله. إن معرفة الله واجبة، وإن جميع الفضائل وما يتبعها من الأعمال مفروضة وإن الرذائل وما يكون عنها محظورة، وأن يضع لذلك ما يشاء من القوانين ليدعو بقية البشر إلى الاعتقاد بمثل ما يعتقد، وإلى أن يأخذوا من الأعمال بمثل ما أخذ به من حيث لم يوجد شرع يعارضه.

أما أن يكون ذلك حالا لعامة الناس يعلمون بعقولهم أن معرفة الله واجبة، وأن الفضائل مناط السعادة في الحياة الأخرى، والرذائل ممدار الشقاء فيها. فما لا يستطيع عاقل أن يقول به. والمشهود من حال الأمم كافة يضل القائل به في رأيه.

لو كانت حاجات الإنسان ومخاوفه محدودة كما هي حاجات فيل أو أسد مثلا، وكان ما وهب له من الفكر واقفا عند حد ما إليه الحاجة، لاهتدى إلى المنافع واتقاء المضار على وجه لا يختلف فيه أفراده، ولسعدت حياته، وتخلص كل من شر الآخر، ونجا بقية الحيوانات من غائلة الجميع.

لكن قننى عليه حكم نوعه بأن لا يكون لحاجته حد، ولا تختص معبشته بجو من الجواء (١) ولا بوضع من الأوضاع، وأن يوهب من القوى المدركة ما يكفيه استعماله في سد عوزة وتوفير لذاته في أى إقليم وعلى أى حال، وأن يختلف ظهور هذه المدارك في أطوارها وآثارها باختلاف أصنافه وشعوبه وأشخاصه اختلافا لا تنتهى درجانه - وأولا هذا لما خالف بقية الحيوانات إلا باستقامة القامة، وعرض الأظفار.

١١ ١٠ ١١

وهب الله الإنسان أو ساطع عليه ثلاث قوى لم يساوه فيها حيوان: الذاكرة والخيالة والمفكرة - فالذاكرة: تثير من صور الماضى ماستره الاشتغال بالحاضر. فنستحضر من صور المرغوبات والمكروهات ما تنبه إليه الأشباه أو الاعداد الحاضرة، فقد يذكر الشيء بشبهه وقد يذكر بغيره كما هو بديهي - والخيال يحسم من المذكور وما يحيط به من الأحوال حتى يصير كأنه مشاهد، ثم ينشئ له مثال لذة أو ألم في المستقبل يحاكي ما ذهب به الماضى. ويهيم النفس في طلبه أو الهرب منه. فتلجأ إلى الفكر في تدبير الوسيلة إليه.

على هذه القوى الثلاث مستوى سعادة الإنسان ومنها ينبوع بلائه

(١) الجو جمعه جواء. كسهم وسهام، وكان في الأصل الأجواء.

٧٦ أثر اعتدال هذه القوى الثلاث وانحرافها في الأعمال

فن الناس معتدل الذكر هادى الخيال صحيح الفكر ، ينظر مثلاً في حال مسرف أنفق ماله في غير نافع وضائق يده عما يقيم معيشته فيذكر ألماً لحاجة مضت ، ثم يتخيل المال ومنافعه وما تتمتع به النفس من اللذة به سواء في سد حاجاته أو في دفع الألم الذي يحدثه مشهد الفاقة في غيره بإعطاء المضطر ما يذهب بضرورته ، ثم يتخيل ذلك المال آتياً من وجوهه التي لا تتعلق بها حق من حقوق غيره ، وعند ذلك يوجه فكره لطلب الوسيلة إليه من تلك الوجوه بالعمل القويم في استخدام ما وهبه الله من القوى في نفسه ، وما سخره له من قوى الكون المحيط به .

ومن الناس منحرف عن سنن الاعتدال ، يرى مالا مثلاً في يد غيره فيتذكر لذة ماضية أصابها بمثل هذا المال ، ويعظم له الخيال للذة مثلها في المستقبل ، ولا يزال يعظم في تلك اللذة والتمتع بها حتى يقع ظل الخيال على طريق الفكر ، فيستر عنه ما طاب من وجوه الكسب وإنما يعمد إلى استعمال قوته أو حيلته في سلب المال من يد مالكة لينفقه فيما تخيل من المنفعة ، فيكون قد عطل بذلك قواه الموهوبة له . وأخل بالأمن الذي أفاضه الله بين عباده وسن سنة الاعتداء فلا يسهل عليه ولا على غيره الوصول إلى الراحة من أعمال المقترفين لمثل عمله

وخفيف من النظر في أعمال البشر بحايها جميعا على نحو ما بينا في
المثالين - فلقوة الذاكرة وضعها، وحدة الخيال واعتداله واعوجاج
الفكر واستقامته ، أعظم أثر في التمييز النافع والضار في أشخاص
الأعمال ، وللأمزجة والجواء وما يحتف بالشخص من أهل
وعشيرة ومعاشرين مدخل عظيم في التخيل والفكر بل وفي الذكر .

فالناس متفقون على أن من الأعمال ما هو نافع ومنها ما هو
ضار وبعبارة أخرى منها ما هو حسن ومنها ما هو قبيح ، ومن
عقلاهم وأهل النظر الصحيح والمزاج المعتدل منهم من يمكنه إصابة
وجه الحق في معرفة ذلك ، ومتفقون كذلك على أن الحسن ما كان
أدوم فائدة وإن كان مؤلما في الحال ، وأن القبيح ما جر إلى فساد في
النظام الخاص بالشخص أو الشامل له ولن يتصل به ، وإن عظمت
لذته الحاضرة ، ولكنهم يختلفون في النظر إلى كل عمل بعينه
اختلافهم في أمزجتهم وسحنهم ومناشئهم وجميع ما يكتنف
هم (١) فذلك ضربوا إلى الشر في كل وجه ، وكل يظن
أنه إنما يطلب نافعا ويتقى ضارا . فالعقل البشري وحده
ليس في استطاعته أن يبلغ بصاحبه ما فيه سعادته

(١) يقال . اكتنفه القوم بمعنى أحاطوا به فهو يتعدى بنفسه
وعداء بالياء بحسب معناه .

في هذه الحياة . اللهم إلا في قليل ممن لم يعرفهم الزمن ، فان كان لهم من الشأن العظيم ما به عرفهم أشار إليهم الدهر بأصابع الأجيال ، وقد سبقت الإشارة إليهم فيما مر .

وليست عقول الناس ، سواء في معرفة الله تعالى ولا في معرفة حياة بعد هذه الحياة ، فهم وإن اتفقوا في الخضوع لقوة أسمى من قواهم وشعر معظمهم بيوم بعد هذا اليوم ، ولكن أفسدت الوثنية عقولهم وانحرفت بها عن مسلك السعادة . فليس في سعة العقل الإنسانى في الأفراد كافة أن يعرف ، من الله ما يجب أن يعرف ولا أن يفهم من الحياة الآخرة ما ينبغي أن يفهم ، ولا أن يقرر لكل نوع من الأعمال جزاءه في تلك الدار الآخرة . وإنما قد تيسر ذلك لقليل من اختصاصهم الله بكمال العقل ونور البصيرة وإن لم ينل (١) شرف الاقتداء بهدى نبوى . ولو بلغه لكان أسرع الناس إلى اتباعه . وهؤلاء ربما يصلون بأفكارهم إلى العرفان من وجه غير ما يليق في الحقيقة أن ينظر منه إلى الجلال الالهى .

ثم من أحوال الحياة الأخرى ، ما لا يمكن لعقل بشرى أن يصل إليه وحده . وهو تفصيل اللذائذ والآلام وطرق المحاسبة على الأعمال ولو بوجه ما .

(١) الفاعل ضمير يعود إلى كلمة قليل بحسب لفظها .

ومن الأعمال ما لا يمكن أن يعرف وجه الفائدة فيه (١) لا في هذه الحياة ولا فيما بعدها ، كصور بعض العبادات كما يرى في أعداد الركعات ، وبعض الأعمال في الحج في الديانة الإسلامية ، وبعض الاحتفالات في الديانة الموسوية^(٢) وضروب التوسل والزهادة في

(١) أى لا يعرف وجه الفائدة فيه نفسه غير كونه تعبداً مع ظهور فائدته التعبدية وهو فعله لمحض امتثال أمر الله تعالى دون ملاحظة منفعة خاصة به ، ويعبرون عن هذا القسم من العبادة بغير معقول المعنى ويقابله معقول المعنى جملة وتفصيلاً كالوضوء والغسل وطهارة البدن والثوب . فإن فائدة ذلك من حفظ الصحة وراحة النفس وهناء المعيشة ظاهرة . كذلك فائدة الصلاة في جملتها والصيام والزكاة وغير ذلك من حكم العبادات وقد أجملها المؤلف في الكلام على الدين الإسلامى ومن المستغرب قوله هنا : لا في هذه الحياة ولا فيما بعدها .

(٢) يظهر لى أن حكمة بعض الاحتفالات في الديانة الموسوية هى محاكاة ما ألفه اليهود فى مصر ثم فى فلسطين من رؤية احتفالات الامم الوثنية مع توجيه الأنفس فيه إلى عبادة الله تعالى والتوجه إليه وحده حتى لا يعودوا إلى مثال ما فعلوا فى التيسه من اتخاذ عجل كمجمل المصريين (اييس) وإلى مثل عبادتهم .

وأما المبالغة فى الزهد المتواتر عن المسيح عليه السلام فخكمته المبالغة فى مقاومة غلو اليهود والرومان فى عصره فى عبادة المال والشهوات البدنية تمهيداً لدين الإسلام الوسط المعتدل الدائم الذى يحمى به البارقليط . روح الحق محمد (ص) الذى بشرهم به وقال إنه هو الذى يعلمهم كل شىء .

٨٠ حاجة العقل البشرى إلى هداية النبوة لمعرفة الله والآخرة

الديانة العيسوية - كل ذلك بما لا يمكن للعقل البشرى أن يستقل بمعرفة وجه الفائدة فيه . ويعلم الله أن فيه سعادته (١)
لهذا كله كان العقل الإنسانى محتاجا - فى قيادة القوى الإدراكية والبدنية إلى ما هو خير له فى الحياتين - إلى معين يستعين به فى تحديد أحكام الأعمال وتعيين الوجه فى الاعتقاد بصفات الألوهية ومعرفة ما ينبغى أن يعرف من أحوال الآخرة - وبالجملة فى وسائل السعادة فى الدنيا والآخرة ولا يكون لهذا المعين سلطان على نفسه ، حتى يكون من نبي جنسه ، ليفهم منه أو عنه ما يقول ، وحتى يكون ممتازا على سائر الأفراد بأمر فائق على ما عرف فى العادة وما عرف فى سنة الخليفة ، ويكون بذلك مبرهنأ (٢) على أنه يتكلم عن الله الذى يعلم مصالح العباد على ما هو عليه ، ويعلم صفاته الكمالية وما ينبغى أن يعرف منها ، والحياة الآخرة وما أعد فيها ، فيكون الفهم عنه والثقة بأنه يتكلم عن

(١) ضرب الغزال مثلا لمعرفة المكلف فائدة العبادة فى جملتها دون بعض تفصيل جزئياتها ووجوب تفويض ذلك إلى علم الله تعالى ، فشبهها بالدواء يعلم المريض بالتجربة أو الثقة بالأطباء أنه يشفى من المرض وهو مجهل فائدة تركه من أجزاء بعضها قليل كقمحة أو قحتين وبعضها كثير كأوقية أو عشر أواق مثلا ، ويفوض ذلك إلى علم الطبيب (٢) أكثر نقلة اللغة على أن النون فى البرهان زائدة وأن قولهم برهن مولد وإنما يقال أبره أى جاء بالبرهان وحكى بعضهم الوجهين كالأزمهرى

العليم الخبير معينا للعقل على ضبط ما تشنت عليه ، أو درك ما ضعف عن إدراكه .

وذلك الملعين هو « النبي »

النبوة تحدد ما ينبغي أن يلحظ في جانب واجب الوجود من الصفات وما يحتاج إليه البشر كافة من ذلك ، وتشير إلى خاصتهم بما يمكن لهم أن يفضلوه به غيرهم في مقامات عرفاتهم لكنها لا تحتم إلا ما فيه الكفاية للعامة . فجاءت النبوات مطالبة بالاعتقاد بوجود الله وبوحدانيته وبالصفات التي أثبتناها على الوجه الذي بيناه . وأرشدت إلى طرق الاستدلال على ذلك . فوجوب المعرفة على هذا الوجه الخصوص ، وضمن المعرفة وحظر الجهالة أو الجحود بشيء مما أوجبه الشرع في ذلك وقبحه ، بما لا يعرف إلا من طريق الشرع معرفة تعاملين بها النفس ، ولو استقل عقل بشيء بذلك لم يكن على الطريق المطلوب من الجزم واليقين والاعتناع الذي هو عماد الطمأنينة ، فإن زيد على ذلك أن العرفان على ما بينه الشرع يستحق المثوبة المعينة فيه ، وضده يستحق العقوبة التي نص عليها - كانت طريق معرفة الوجوب شرعية محضة ، غير أن ذلك لا ينافي أن معرفة الله على هذه الصفة حسنة وإنما جاء الشرع مبينا للواقع ، فهو ليس محدث الحسن ، ونصوصه تؤيد ذلك .

وأذكر مثالا من كثير : قال تعالى على لسان يوسف (١٢) :
 ٣٩ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ؟ يشير بذلك
 إشارة واضحة إلى أن تفرق الآلهة يفرق بين البشر في وجهة قلوبهم.
 إلى أعظم سلطان يتخذونه فوق قوتهم ، وهو يذهب بكل فريق إلى
 التعصب لما وجه قلبه إليه ، وفي ذلك فساد نظامهم كما لا يخفى ، وأما
 اعتقاد جميعهم بإله واحد فهو توحيد لمنازع نفوسهم إلى سلطان
 واحد يخضع الجميع لحكمه ، وفي ذلك نظام لإخوتهم ، وهى قاعدة
 سعادتهم ، وإليها مآلهم فيما أعتقد وإن طال الزمان (١) فكما جاء
 الشرع مطالباً بالاعتقاد جاء هادياً لوجه الحسن فيه .

النبوة تحدد أنواع الأعمال التى تناط بها سعادة الإنسان فى
 الدارين ، وتطالبه عن الله بالوقوف عند الحدود التى حددتها ،
 وكثيراً ما تبين له مع ذلك وجوه الحسن أو القبح فيما أمر به أو نهى

(١) كان المؤلف رضى الله عنه يعتقد أن ارتقاء الأمم من طريق
 علوم الكون والنفس والاجتماع سينتهى بهم إلى التوحيد وسائر مآقره
 القرآن من أصول الدين (٤١ : ٥٣) سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم
 حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد ٥٤
 ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شئ محيط)

عنه ، فوجوب عمل من المأمور به أو التنبه إليه ، وحظر عمل أو كراهته من المنهى عنه على الوجه الذى حددته الشريعة وعلى أنه مثاب عليه بأجر كذا ومجازى عليه بعقوبة كذا — مما لا يستقل العقل بمعرفته ، بل طريقة معرفته شرعية ، وهو لا يتأفى أيضاً أن يكون المأمور به حسناً فى ذاته ، بمعنى أنه مما يؤدى إلى منفعة دنيوية أو أخروية باعتبار أثره فى أحوال المعيشة أو فى صحة البدن أو فى حفظ النفس أو المال أو العرض ، أو فى زيادة تعلق القلب بالله جل شأنه ، كما هو مفصل فى الأحكام الشرعية . وقد يكون من الأعمال مالا يمكن درك حسنه ، ومن المنهيات مالا يعرف وجه قبحه ، وهذا النوع لاحسن له إلا الأمر ، ولا قبح إلا النهى . والله أعلم .

الرسالة العامة

نريد بالرسالة العامة بعثة الرسل لبليغ شيء من العقائد والأحكام عن الله خالق الإنسان وموفيه ما لا غنى له عنه ، كما وفي غيره من الكائنات سداد حاجاتها ووقاء وجودها على القدر الذي حدد لها في رتبة نوعها من الوجود .

والكلام في هذا البحث من وجهين (الأول) وهو أيسرهما على المتكلم - وجهه أن الاعتقاد ببعثة الرسل ركن من أركان الإيمان ^(١) . فيجب على كل مؤمن ومؤمنة أن يعتقد أن الله أرسل رسلا من البشر مبشرين بثوابه ، ومنذرين بعقابه . قاموا ببليغ أعمهم ما أمرهم ببليغه من تنزيه لذاته ، وتبيين سلطانه القاهر على عباده ، وتفصيل لأحكامه ، في فضائل أعمال وصفات يطالهم بها ، وفي نقائص فعال وخلائق ينهام عنها - وأن يعتقد وجوب تصديقهم في أهم يبلغون ذلك عن الله ، ووجوب الاقتداء بهم في سيرهم ، والالتزام بما أمروا به والكف عما نهوا عنه ، وأن يعتقد أن منهم من أنزل

(١) يقابل هذا الوجه حاجة البشر إلى الرسالة وقد عقد له فصلا

خاصاً سيأتى في (صفحة ٨٩)

ما يجب الإيمان به من صفات الأنبياء ومعجزاتهم ٨٥

الله عليه كتباً تشتمل على ما أراد أن يبلغوه من الخبر عنه ، ومن الحدود والأحكام التي علم الخير لعباده في الوقوف عندها ، وأن هذه الكتب التي أنزلت عليهم حق - وأن يؤمن بأنهم مؤيدون من العناية الإلهية بما لا يعهد للعقول ولا للاستطاعة البشرية ، وأن هذا الأمر الفائق لمعروف البشر هو المعجزة الدالة على صدق النبي في دعواه ؛ فتي ادعى الرسول النبوة واستدل عليها بالمعجزة وجب التصديق برسائلته .

ومن لوازم ذلك بالضرورة وجوب الاعتقاد بعلو فطرتهم وصحة عقولهم ، وصدقهم في أقوالهم ، وأمانتهم في تبليغ ما عهد إليهم أن يبلغوه . وعصمتهم من كل ما يشوه السيرة البشرية ، وسلامه أهدانهم بما تنبؤ عنه الأبصار ، وتنفر منه الأذواق السليمة ، وأنهم منزهون عما يضاد شيئاً من هذه الصفات المتقدمة ، وأن أرواحهم ممدودة من الجلال الإلهي بما لا يمكن معه لنفس إنسانية أن تسطو عليها سطوة روحانية - أما فيما عدا ذلك فهم بشر يعترهم ما يعترى سائر أفرادهم : يأكلون ويشربون وينامون ويسهون وينسون فيما لا علاقة له بتبليغ الأحكام - ويمرضون وتمتد إليهم أيدي الظلمة ، وينالهم الاضطهاد ، وقد يقتل الأنبياء .

المعجزة ليست من نوع المستحيل عقلاً فإن مخالفة السير الطبيعي

المعروف فى الإيجاد مما لم يقيم دليل على استحالة ، بل ذلك بما يقع كما يشاهد فى حال المريض يمتنع عن الأكل مدة لو لم يأكل فيها وهو صحيح لمات مع وجود العلة التى تزيد الضعف وتساعد الجوع على الإلتلاف .

فإن قيل : إن ذلك لا بد أن يكون تابعاً لناموس آخر طبيعى « قلنا : إن واضح الناموس هو موجد الكائنات ، فليس من المحال عليه أن يضع نواميس خاصة بخوارق العادات ، غاية ما فى الأمر أننا لا نعرفها ولكننا نرى أثرها على يد من اختصه الله بفضل من عنده ، على أننا بعد الاعتقاد بأن صانع الكون قادر مختار يسهل علينا العلم بأنه لا يمتنع عليه أن يحدث الحادث على أى هيئة وتابعاً لأى سبب إذا سبق فى علمه أنه يحدثه كذلك .

المعجزة لا بد أن تكون مقرونة بالتحدى عند دعوى النبوة ، و ظهورها من البراهين المثبتة لنسوة من ظهرت على يده ، لأن النبى يستند إليها فى دعواه أنه مبلغ عن الله ، فأصدار الله لها عند ذلك يعد تأييداً منه له فى تلك الدعوى . ومن المحال على الله أن يؤيد الكاذب ، فإن تأييد الكاذب تصديق له ، وتصديق الكاذب كذب وهو محال على الله (١) فتنى ظهرت المعجزة وهى بما لا يقدر

(١) يشير المصنف إلى أن دلالة المعجزة وضعية . لأنها بمعنى التصديق بالقول وهو المشهور . وقيل عقلية وقيل : عادية ، ومن : هذه المباحث ما قرره المتكلمون بأدلتهم النظرية ولم يرد فى النصوص السمعية .

عليه البشر ، وقارن ظهورها دعوى النبوة علم بالضرورة أن الله ما أظهرها إلا تصديقاً لمن ظهرت على يده ، وإن كان هذا العلم قد يقارنه الإنكار مكابرة .

وأما السحر وأمثاله فإن سلم أن مظاهره فائقة عن (١) آثار الأجسام والجسمانيات فهي لا تعلو عن متناول القوى الممكنة فلا يقارب المعجزة في شيء .

أما وجوب تلك الصفات المتقدمة للأنبياء فلاهم لو انحطت فطرهم عن فطر أهل زمانهم ، أو تضاءلت أرواحهم لسلطان نفوس آخر ، أو مس عقولهم شيء من الضعف — لما كانوا أهلاً لهذا الاختصاص الإلهي الذي يفوق كل اختصاص : اختصاصهم بوحيه ، والكشف لهم عن أسرار عليه . ولو لم تسلم أديانهم عن المنفردات لكان انزعاج النفس لمرآهم ، حجة للنسك في إنكار دعواهم . ولو كذبوا أو خانوا أو قبححت سيرتهم لضعفت الثقة

(١) فعل فاق يتعدى بنفسه يقال : فاق أقرانه ولعله ضمنه معنى الانفصال على القول بقياسية التضمين . ومثله قوله بعده « لا تعلو عن متناول القوى » . يقال . علاه وعلا بعضهم على بعض وقد ضمنه معنى البعد . والسحر ليس من الخوارق كما توهم بعض المتكلمين فإنه صناعة تتلقى بالتعليم كما ثبت بنص القرآن وتاريخ قدماء المصريين وغيرهم وقد بينا حقيقته في تفسير قصة هاروت وماروت (صفحة ٣٩٧ من الجزء الأول من تفسير المنار)

بهم ، ولكانوا مضلين لا مرشدين فتذهب الحكمة من بعثهم ،
والأمر كذلك لو أدركهم السهو أو النسيان فيما عهد إليهم تبليغه
من العقائد والأحكام .

وأما وقوع الخطأ منهم فيما ليس من الحديث عن الله ولأله
مدخل في التشريع فجوزه بعضهم والجمهور على خلافه ، وما ورد
من مثل أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن تأييد النخل (١) ثم
أباحه لظهور أثره في الإثمار فإنما فعله عليه الصلاة والسلام ليعلم
الناس أن ما يتخذونه من وسائل الكسب وطرق الصناعات فهو
موكول لمعارفهم وتجاربهم ، ولا حظر عليهم فيه ما دامت الشرائع
مرعية ، والفضائل محمية ، وما حكاه الله من قصة آدم وعصيانه
بالأكل من الشجرة فما خفي فيه سر النهي عن الأكل والمؤاخذه

(١) « تأييد النخل » تلميحه والحديث في صحيح مسلم والروايات
صريحة في تأييد قول المجوزين دون الجمهور ، منها رواية موسى بن طلحة
عن أبيه مرفوعاً « إن كان ذلك ينفعهم فليصنعوه فإنني إنما ظننت ظناً
فلا تؤاخذوني بالظن ، ولكن إذا حدثكم عن الله شيئاً فخذوا به فإنني
إن أكلت على الله عز وجل ، ورواية رافع بن خديج « إنما أنا بشر
إذا أمرتكم بشيء من أمر دينكم فخذوا ، به وإذا أمرتكم بشيء من
رأيي فإنما أنا بشر ، ورواية عائشة « أتم أعلم بأمر دنياكم » .

معصية آدم وحكمتها وكونها لا ترد على عصمة الرسل ٨٩

عليه ، وغاية ما علمناه من حكمته أنه كان سبياً لعمارة الأرض ببني آدم كأن النهى والاكل رمز ان إلى طورين من أطوار آدم عليه السلام أو مظهران من مظاهر النوع الإنساني في الوجود . والله أعلم (١) ومن العسر إقامة الدليل العقلي أو إصابة دليل شرعي يقطع بما ذهب إليه الجمهور .

(١) للؤلف رحمه الله كلام مفصل في هذه المسألة قرره في تفسير قصة آدم من سورة البقرة يطلب من الجزء الأول من تفسير المنار فهو بما لم يحجم حوله أحد فيما علمنا

وقد قيل أيضاً : إن آدم عليه السلام لم يكن في الجنة نبياً رسولاً ولم يكن معه أمة يخشى أن تسوء قدوتهم به . وقد صح في حديث الشفاعة أن نوحاً أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض ، وهو ظاهر عدة آيات في القرآن لا محل هنا لذكرها . وإنما الغرض هنا أن قصة آدم عليه السلام لا ترد على الدليل النظري الذي استدلوا به على عصمة الأنبياء . والجمهور يقولون بأن عصمتهم إنما تثبت بعد النبوة لا قبلها ، والمجمع عليه منها العصمة في التبليغ أو عما يتألف في الرسالة وعن الكفر قال السعد في شرح المقاصد : والمذهب عندنا منع الكبائر بعد البعثة مطلقاً ، والصغار عمداء لا سهواً ، لكن لا يصرون ولا يقرون بل ينهون فيتنهون . ثم أجاب عن معصية آدم بأنها كانت قبل البعثة (قال) وكيف ولم تكن في الجنة أمة وكان عن نسيان لقوله تعالى (فنسى) الخ .

حاجة البشر إلى الرسالة

سبق لك في الفصل السابق ما يهيم الكلام عليه من الوجه الأول وهو وجه ما يجب على المؤمن اعتقاده في الرسل . والكلام في هذا الفصل موجه إن شاء الله إلى بيان الحاجة إليهم . وهو معترك الأفهام ، ومزلة الأقدام ، ومزدحم الكثير من الأفكار والأوهام ، ولسنا بصدد الإتيان بما قال الأولون ، ولا عرض مذهب إليه الآخرون ولكننا نلزم ما التزمنا في هذه الوريقات من بيان المعتقد ، والذهاب إليه من أقرب الطرق . من غير نظر إلى ما مال إليه المخالف ، أو استقام عليه الموافق ، اللهم إلا إشارة من طرف خفي ، أو إلماعاً لا يستغنى عنه القول الجلي .

وللكلام في بيان الحاجة إلى الرسل مسلكان (الأول) - وقد سبق الإشارة إليه - يتبدى من الاعتقاد ببقاء النفس الإنسانية بعد الموت ، وأن لها حياة أخرى بعد الحياة الدنيا تتمتع فيها بنعيم أو تشقى فيها بعذاب أليم ، وأن السعادة والشقاء في تلك الحياة الباقية ، معقودان بأعمال المرء في حياته الفانية ، سواء كانت تلك الأعمال قلبية كالاقتادات والمقاصد والإرادات ، أو بدنية كأنواع العبادات والمعاملات .

٩١ اتفاق أجل البشر على بقاء نفس الإنسان بعد الموت

اتفقت كلمة البشر موحدين ووثنيين مليون وفلاسفة إلا قليلا لا يقيام لهم وزن على أن لنفس الإنسان بقاء تحيا به بعد مفارقة البدن وأنها لا تموت موت فناء (١) وإنما الموت المحتوم هو ضرب من البطون والخفاء ، وإن اختلفت منازعهم في تصوير ذلك البقاء وفيما تكون عليه النفس فيه ، وتباينت مشاربهم في طرق الاستدلال عليه فمن قائل بالتناسخ في أجساد البشر أو الحيوان على الدوام ومن ذاهب إلى أن التناسخ يذنبى عندما تبلغ النفس أعلى مراتب الكمال ، ومنهم من قال . إنها متى فارقت الجسد عادت إلى تجردها عن المادة حافظة لما فيه لذتها أو ما به شقوتها ، ومنهم من رأى أنها تتعلق بأجسام أثرية ، ألطف من هذه الأجسام المريئة . وكان اختلاف المذاهب في كنه السعادة والشقاء والآخرين وفيما هو متاع الحياة الآخرة وفي الوسائل التي تعد للنعيم أو تبعد عن النكال الدائم . وتضارب آراء الأمم فيه قديما وحديثا بما لا تكاد تحصى وجوهه .

هذا الشعور العام بحياة بعد هذه الحياة المنبث في جميع الأنفس عالمها وجاهلها ، وحشيتها ومستأنسها ، باديها وحاضرها ، قديما وحديثا لا يمكن أن يعد ضلة عقلية ، أو نزعة وهمية ، وإنما هو من

(١) يريد بالفناء المنفى الزوال المطلق وإلا بالفناء يطلق على ما فر

به الموت المحتوم

الإلهامات التي اختص بها هذا النوع ، فكما ألهم الإنسان أن عقله وفكرة هما عماد بقائه في هذه الحياة الدنيا ، وإن شذ أفراد منه ذهبوا إلى أن العقل والفكر ليسا بكافيين للارشاد في عمل ما . أو إلى أنه لا يمكن للعقل أن يوقن باعتقاد ، ولا للفكر أن يصل إلى مجهول ، بل قالوا إنه لا وجود للعالم إلا في اختراع الخيال . وأنهم شاكون حتى في أنهم شاكون ، ولم يطعن شذوذ هؤلاء في صحة الإلهام العام المشعر لسائر أفراد النوع أن الفكر والعقل هما ركن الحياة وأس البقاء إلى الأجل المحدود ، كذلك قد ألهمت العقول وأشعرت النفوس أن هذا العمر القصير ليس هو منتهى ما للإنسان في الوجود ، بل الإنسان ينزع هذا الجسد كما ينزع الثوب عن البدن ، ثم يكون حيا باقيا في طور آخر وإن لم يدرك كنهه .

ذلك إلهام يكاد يزاحم البديهة في الجلاء ، بشعر كل نفس أنها خلقت مستعدة لقبول معلومات غير متناهية من طرق غير محصورة ، شقيقة إلى لذائذ غير محدودة ولا واقفة عند غاية ، مهياة لدرجات من الكمال لا تحددها أطراف المراتب والغابات ، معرضة لآلام من الشهوات ونزعات الأهواء ، ونزوات الأمراض على الأجساد . ومصارعة الجواء والحاجات ، وضروب من مثل ذلك لا تدخل تحت عد ، ولا تنتهى عند حد ، إلهام يلفتها بعد هذا الشعور إلى أن واهب الوجود للأنواع ، إنما قدر الاستعداد بقدر الحاجة في

استعداد الإنسان لما لانهائية من علم لأنه خلق لما لانهائية من الحياة ٩٣

البقاء ولم يعد في تصرفه العبث والكيل الجراف ، فما كان استعداداه لقبول ما لا يتناهى من معلومات وآلام ولذائد وكالات ، لا يصح أن يكون بقاءه قاصرا على أيام أو سنين معدودات .

شعور يهيج بالارواح إلى تحسس هذا البقاء الأبدى، وما عسى أن تكون عليه متى وصلت إليه . وكيف الاهتداء وأين السبيل ، وقد غاب المطلوب وأعوز الدليل ؟ شعورنا بالحاجة إلى استعمال عقولنا في تقويم هذه المعيشة القصيرة الأمد لم يكفنا في الاستقامة على المنهج الأقوم ، بل لزمنا الحاجة إلى التعليم والإرشاد وقضاء الأزمنة والأعصار ، في تقويم الأنظار وتعديل الأفكار وإصلاح الوجدان ، وتثقيف الأذهان ، ولا نزال إلى الآن من هم هذه الحياة الدنيا في اضطراب لا ندرى متى نخلص منه ، وفي شوق إلى طمأنينة لا نعلم متى تنتهى إليها .

هذا شأننا في فهم عالم الشهادة فإذا توكل من عقولنا وأفكارنا في العلم بما في عالم الغيب ؟ هل فيما بين أيدينا من الشاهد معالم نهتدى بها إلى الغائب ؟ وهىل في طوق الفكر ما يوصل كل أحد إلى معرفة ما قدر له في حياة يشعر بها ، وبأن لا مندوحة عن القدوم عليها ، ولكن لم يوهب من القوة ما ينفذ إلى تفصيل ما أعد له فيها والشئون التي لا بد أن يكون عليها بعد مفارقة ما هو فيه ، أو إلى معرفة يبد من يكون تصريف تلك الشئون ؟

هل في أساليب النظر ما يأخذ بك إلى اليقين بمنابها من
الاعتقادات والأعمال ، وذلك الكون مجهول لديك ، وتلك الحياة
في غاية الغموض بالنسبة إليك ؟ كلا فإن الصلة بين العالمين تكاد
تكون منقطعة في نظر العقل ومرامى المشاعر ، ولا اشتراك بينهما
إلا فيك أنت ، فالنظر في المعلومات الحاضرة ، لا يوصل إلى اليقين ،
بحقائق تلك العوالم المستقبلية .

أفليس من حكمة الصانع الحكيم ، الذي أقام أمر الإنسان على
قاعدة الإرشاد والتعليم ، الذي خلق الإنسان ، وعلمه البيان ، علمه
الكلام للتفاهم ، والكتاب للتراسل ، أن يجعل من مراتب الأنفس
البشرية مرتبة يعد لها بمحض فضله بعض من يصطفيه من خلقه ،
وهو أعلم حيث يجعل رسالته ؟ يميزهم بالفطر السليمة ، ويبلغ
بأرواحهم من الكمال ما يليقون معه للاستشراق بأنوار علمه ،
والأمانة على مكنون سره بما لو انكشف لغيرهم انكشافه لهم
لفاضت له نفسه ، أو ذهبت بعقله جلالته وعظمه ، فيشرفون
على الغيب ياذنه ، ويعلمون ما سيكون من شأن الناس فيه ،
ويكونون في مراتبهم العلوية على نسبة من العالمين : نهاية الشاهد
وبداية الغائب ، فهم في الدنيا كأنهم ليسوا من أهلها ، وهم وفد
الآخرة في لباس من ليس من سكانها ، ثم يتلقون من أمره أن

مرتبة أنفس الرسل بين عالمي الغيب والشهادة ٩٥

يحدثوا عن جلاله ، وما خفي عن العقول من شئون حضرته الرفيعة بما يشاء أن يعتقده العباد فيه وما قدر أن يكون له مدخل في سعادتهم الآخروية ، وأن يبينوا للناس من أحوال الآخرة ما لا بد لهم من علمه . معبرين عنه بما تحمله طاقة عقولهم ، ولا يبعد من متناول أفهامهم ، وأن يبلغوا عنه شرائع عامة تحدد لهم سيرهم في تقويم نفوسهم وكبح شهواتهم ، وتعلمهم من الأعمال ما هو مناط سعادتهم وشقايتهم ، في ذلك الكون المغيب من مشاعرهم بتفصيله اللاصق عليه بأعماق ضمائرهم في إجماله . ويدخل في ذلك جميع الأحكام المتعلقة بكليات الأعمال ظاهرة وباطنة ، ثم يؤيدهم بما لا تبلغه قوى البشر من الآيات ، حتى تقوم بهم الحاجة ، ويتم الإقناع بصدق الرسالة ، فيكونون بذلك رسلا من لدنه إلى خلقه مبشرين ومنذرين .

لا ريب أن الذي أحسن كل شيء خلقه ، وأبدع في كل كائن صنعه وجاد على كل حي بما إليه حاجته ، ولم يحرم من رحمته حقيراً ولا جليلاً من خلقه ، يكون من رآفته بالنوع الذي أجاد صنعه ، وأقام له من قبول العلم ما يقوم مقام المواهب التي اختص بها غيره ، أن ينقذه من حيرته ويخلصه من التخبط في أهم حياته ، والضلال في أفضل حاله .

يقول قائل : ولم لم يودع في الفرائض ما تحتاج إليه من العلم ، ولم يضع فيها الانقياد إلى العمل وسلوك الطريق المؤدية إلى الغاية في الحياة الأخرى ؟ وما هذا النحو من عجائب الرحمة في الهداية والتعليم ؟ وهو قول يصدر عن شطط العقل ، والغفلة عن موضوع البحث — وهو النوع الإنساني — ذلك النوع على ما به ، وما دخل في تقويم جوهره من الروح المفكر ، وما اقتضاه ذلك من الاختلاف في مراتب الاستعداد باختلاف أفراده ، وأن لا يكون كل فرد منه مستعداً لكل حال بطبعه وأن يكون وضع وجوده على عماد البحث والاستدلال فلو ألهم حاجاته كما تلهم الحيوانات لم يكن هو ذلك النوع ، بل كان إما حيواناً آخر كالنحل والنمل ، أو ملكاً من الملائكة ليس من سكان هذه الأرض .

المسلك الثانى فى بيان الحاجة إلى الرسل

يؤخذ من طبيعة الإنسان نفسه

أرتنا الأيام غابرها وحاضرها أن من الناس من يختزل نفسه من جماعة البشر ، وينقطع إلى بعض الغابات ، أو إلى رموس الجبال . ويستأنس إلى الوحش ، ويعيش عيش الأوابد من الحيوان يتغذى بالأعشاب وجذور النبات ، ويأوى إلى الكهوف والمغاور ، ويتقى بعض العواذى عليه بالصخور والأشجار ، ويكتفى من الثياب بما ينخسف من ورق الشجر ، أو جلود الهالك من حيوان البر ، ولا يزال كذلك حتى يفارق الدنيا .

ولكن مثل هذا مثل النحلة تنفرد عن الدبر^(١) وتعيش عيشة لا تتفق مع ما قدر لنوعها ، وإنما الإنسان نوع من تلك الأنواع التى غرز فى طبيعتها أن تعيش بجماعة وإن تعددت فيها الجماعات ، على أن يكون لكل واحد من الجماعة عمل يعود على المجموع فى بقاءه . وللمجموع من العمل ما لاغنى للواحد عنه فى نمائه وبقائه ، وأودع فى كل شخص من أشخاصها شعور ما بحاجة إلى سائر أفراد الجماعة

(١) الدبر بالفتح والكسر : جماعة النحل وكذا الزنابير .

(م ٧ رسالة التوحيد)

يشملها اسم واحد . وتاريخ وجود الإنسان شاهد بذلك . فلا حاجة إلى الإطالة في بيانه . وكفاك من الدليل على أن الإنسان لا يعيش إلا في جملة ما وهبه من قوة النطق ، فلم يخلق لسانه مستعداً لتصوير المعاني في الألفاظ وتأليف العبارات إلا لاشتداد الحاجة إلى التفاهم ، وليس الاضطرار إلى التفاهم بين اثنين أو أكثر ، إلا الشهادة بأن لا غنى لأحدهم عن الآخر .

حاجة كل فرد من الجماعة إلى سائرهما عما لا يشتبه فيه ، وكلما كثرت مطالب الشخص في معيشتة ازدادت به الحاجة إلى الأيدي العاملة ، فشتتد الحاجة ، وعلى أثرها الصلة من الأهل إلى العشيرة ثم إلى الأمة وإلى النوع بأسره ، وأيامنا هذه شاهدة على أن الصلة التابعة للحاجة تعم النوع كما لا يخفى .

هذه الحاجة خصوصاً في الأمة التي حققت عنوانها ، لها صلات وعلائق ميزتها عما سواها : حاجة في البقاء ، حاجة في التمتع بمزايا الحياة ، حاجة في جلب الرغائب ودفع المكروه من كل نوع .

لو جرى أمر الإنسان على أساليب الخلقة في غيره ، لكانت هذه الحاجة من أفضل عوامل المحبة بين أفرادها ، عامل يشعر كل نفس أن بقاءها مرتبط ببقاء الكل . فالكل منها بمنزلة بعض قواها

المسخرة لمنافعها ودرء مضارها ، والمحبة عماد السلم ورسول السكينة إلى القلوب ، هي الدافع لكل من المتحايين على العمل لمصلحة الآخر ، الناهض بكل منها للدفاع عنه في حالة الخطر ، فكان من شأن المحبة أن تكون حفاظاً لنظام الأمم وروحاً لبقائها . وكان من حالها أن تكون ملازمة للحاجة على مقتضى سنة الكون ، فإن المحبة حاجة لنفسك إلى من تحب أو ما تحب ؛ فإن اشتدت كانت ولعاً وعشقا .

لكن كان من قوانين المحبة أن تنشأ وتدوم بين متحايين إذا كانت الحاجة إلى ذات المحبوب أو ما هو فيها لا يفارقها ، ولا يكون هذا النوع منها في الإنسان إلا إذا كان منشؤه أمراً في روح المحبوب وشماله التي لا تفارق ذاته ؛ حتى تكون لذة الوصول في نفس الاتصال لا في عارض يتبعه . فإذا عرض التبادل والتعارض ولوحظ في العلاقة بينهما تحولت المحبة إلى رغبة في الانتفاع بالغرض ، وتعلقت بالمنتفع به لا بمصدر الانتفاع . وقام بين الشخصين مقام المحبة إما سلطان القوة أو ذلة الخفاقة أو الدهان والخديعة من الجانبين .

يحب الكلب سيده ويخلص له ويدافع عنه دفاع المستमित لما يرى أنه مصدر الاحسان إليه في سداد عوزه ، فصورة شعبة وريه

١٠٠ تعلم الانسان وتفكره ورغائبه ومخاوفه ومصارعته للكون

وحمايته مقرونة في شعوره بصورة من يكفلها له ، فهو يتوقع فقدتها بفقدته فيحرص عليه حرصه على حياته ، ولو أنه انتقل من حوزته إلى حوزة آخر وغاب عنه السنين ثم رآه معرضا لخطر ما عادت إليه تلك الصورة يصل بعضها بعضا واندفع إلى خلاصه بما تمكنه القوة .

ذلك لأن الإلهام الذى هدى به شعور الكلب ليس بما تتسع به المذاهب ، فوجدانه يتردد بين الإحسان ومصدره ، وليس وراءها مذهب ، فحاجته في سد عوزة هى حاجته إلى القائم بأمره ، فيجبه محبة لنفسه ، ولا يبخس منها شوب التعاض في الخدمة .

أما الإنسان - وما أدراك ما هو - فليس أمره على ذلك . ليس من يلهم ولا يتعلم ، ولا بمن يشعر ولا يتفكر ، بل كان كماله النوعى في إطلاق مداركه عن القيد ، ومطالبه عن النهايات ، وتسليمه على صغره إلى العالم الأكبر على جلالته وعظمه ، يصارعه بعوامله وهى غير محصورة حتى يعتصر منه منافع وهى غير محدودة ، ولإيداعه من قوى الإدراك والعمل ما يصينه على المغالبة ، ويمكنه من المطالبة بسعيه ورأيه ، ويتبع ذلك أن يكون له فى كل كائن مما يصل إليه لذة ، وبجوار كل لذة ألم ومخافة ، فلا تنتهى رغائبه إلى غاية ، ولا تقف مخاوفه عند نهاية (٧٩ : ١٩) إن الإنسان خلق هلو عا ٢٠ إذا مسه الشر جزوعا ٢١ وإذا مسه الخير منوعا)

نعلم الانسان وتفكره ورغائبه ومخاوفه ومصارعته للكون ١٠١

تفاوتت أفراده في مواهب الفهم وفي قوى العمل ، وفي الهمة والعزم ، فمنهم المقصر ضعفاً أو كسلاً ، المتطاول في الرغبة شهوة وطمعاً . يرى في أخيه أنه العون له على ما يريد من شئون وجوده ، ولكنه يذهب من ذلك إلى تخيل اللذة في الاستئثار بجميع ما في يده ولا يقنع بمعاوضته في ثمرة من ثمار عمله ، وقد يجحد اللذة في أن يتمتع ولا يعمل . ويرى الخير في أن يقيم مقام العمل ، إعمال الفكر في استنباط ضروب الحيل ، ليتمتع وإن لم ينفع ، ويغلب عليه ذلك حتى يجحد له أن لاضير عليه لو انقرد بالوجود عمن يطلب مغالبتة ، ولا يبالي بإرساله إلى عالم العدم بعد سلبه ، فكلماً حثه الذكر والخيال إلى دفع مخافة أو الوصول إلى لذية فتح له الفكر باباً من الحيلة ، أو هيأ له وسيلة لاستعمال القوة . فقام التناهب مكان التواهب ، وحل الشقاق محل الوفاق ، وصار الضابط لسيرة الإنسان إما الحيلة وإما القهر .

هل وقف الهوى بالإنسان عند التنافس في اللذائذ الجسدانية وتجاهل أفراد طمعاً في وصول كل إلى ما يظنه غاية مطلبه وإن لم تكن له غاية ؟ كلا ! ولكن قدر له أن تكون له لذائذ روحانية ، وكان من أعظم همه أن يشعر بالكرامة له في نفس غيره من تجميعه معهم جامعة ما حسبها يمتد إليه نظره ، وقد بلغت هذه الشهوة حداً من الأنفس كادت تغلب على جميع الشهوات ،

وأخذت لذة الوصول إليها من الأرواح مكانا كاد لا تصعد إليه (١)
سائر اللذات ، وهي من أفضل العوامل في إحراز الفضائل ، وتمكين
الصلوات بين الأفراد والأمم ، لو صرفت فيما سيقت لأجله ، ولكن
انحرف بها السبيل كما انحرف غيرها للأسباب التي أشرنا إليها من
التفاوت في مراتب الإدراك والهمة والعزيمة ، حتى خيل لكثير
من العقلاء أن يسعى إلى إعلاء منزلته في القلوب بإخافة الأمن (٢)
وإزعاج الساكن ، وإشعار القلوب رهبة المخافة لا تهيب الحرمه .

هل يمكن مع هذا أن يستقيم أمر جماعة بني نظامهم وعلق بقاؤهم
في الحياة على تعاونهم ورفد بعضهم بعضا في الأعمال ؟ أو لا تكون
هذه الأفاعيل السابق ذكرها سببا في تقائهم ؟ لا ريب أن البقاء
على تلك الأحوال من ضروب المحال ، فلا بد للنوع الإنساني في
حفظ بقائه من المحبة أو ما ينوب منابها .

لجأ بعض أهل البصيرة في أزمنة مختلفة إلى العدل ، وظنوا كما

(١) الأصل أن يقال : لا تكاد تصعد إليه الخ أو كاد أن لا تصعد إليه

(٢) يحتمل أن تكون الكلمة : الأمن ، اسم فاعل وهو المناسب

لما كان بعده . وأن تكون مصدرا بمعناه وهو ظاهر نسخة المؤلف

إذ ليس فيها علامة المد

شبهة صلاح البشر بوضع العقلاء قواعد العدل لهم ١٠٣

ظن بعض العارفين ونطق به في كلمة جليلة « إن العدل نائب المحبة »
نعم لا يخلو القول من حكمة . ولكن من الذى يضع قواعد العدل
ويحمل الكافة على رعايتها ؟ قيل ذلك هو العقل ؟ فكما كان الفكر
والذكر والخيال ينايع الشقاء ، كذلك تكون وسائل السعادة
وفيها مستقر السكينة ، وقد رأينا أن اعتدال الفكر وسعة العلم
وقوة العقل وأصالة الحكم . تذهب بكثير من الناس إلى ما وراء
حجب الشهوات . وتعلو بهم فوق ما تخيله المخاوف ، فيعرفون لكل
حق حرمة ، ويميزون بين لذة ما يفنى ومنفعة ما يبقى ، وقد جاء
منهم أفراد في كل أمة وضعوا أصول الفضيلة وكشفوا وجوه
الرديلة ، وقسموا أعمال الإنسان إلى ما تحضر لذته وتسوء عاقبته
وهو ما يجب اجتنابه ، وإلى ما قد يشق احتماله ، ولكن تسر مغيبته
وهو ما يجب الأخذ به ومنهم من أنفق في الدعوة إلى رأيه نفسه
وماله ، وقضى شهيد إخلاصه في دعوة قومه إلى ما يحفظ نظامهم ،
فهؤلاء العقلاء هم الذين يضعون قواعد العدل ، وعلى أهل
السلطان أن يحملوا الكافة على رعايتها ، وبذلك يستقيم أمر
الناس .

هذا قول لا يجافى الحق ظاهره ، ولكل هل سمع في سيرة
الإنسان وهل ينطبق على سنته أن يخضع كافة أفراد أو الغالب منهم

١٠٤ شعور كل إنسان بالسلطان الغيبي المتصرف فيه وفي غيره

لأرى العاقل لمجرد أنه الصواب ؟ وهل كفى في إقناع جماعة منه كشعب أو أمة قول عاقلهم : إنهم مخطئون وإن الصواب فيما يدعونه إليه ؟ وإن أقام على ذلك من الأدلة ما هو أوضح من الضياء ، وأجلى من ضرورة المحبة للبقاء ؟ كلا ! لم يعرف ذلك في تاريخ الإنسان ولا هو بما ينطبق على سنته ، فقد تقدم لنا أن مهب الشقاء هو تفاوت الناس في الإدراك ، وهم مع ذلك يدعون المساواة في العقل والتقارب في الأصول ، ولا يعرف جمهورهم من حال الفاضل إلا كما يعرف من أمر الجاهل . ومن لم يكن في مرتبتك من العقل لم يذق مذاقك من الفضل فمجرد البيان العقلي لا يدفع نزاعاً ولا يرد طمأنينة ، وقد يكون القائم على ما وضع من شريعة العقل ممن يزعم أنه أرفع من واضعها ، فيذهب بالناس مذهب شهبواته فتذهب حرمتها ، ويتهدم بناؤها ، ويفقد ما قصد بوضعها .

أضف إلى ما سبق من نزعات الفكر ونزعات الأهواء شعوراً هو الصق بالغريزة البشرية وأشد لزوماً لها . كل إنسان مهما علا فكره وقوى عقله ، أو ضعفت فطنته وانحطت فطرته ، يجد نفسه أنه مغلوب لقوة أرفع من قوته ، وقوة ما أنس منه الغلبة عليه بما حوله وأنه محكوم بأرادة تصرفه وتصرف ما هو فيه من الجوارم

١٠٥ تصوير خيال البشر لقوة الله الغيبية ومعرفة بعضهم لها

في وجوهه ربما لا تعرفها معرفة العارفين ، ولا تتطرق إليها إرادة المختارين .

تشعر كل نفس أنها مسوقة لمعرفة تلك القوة العظمى فتطلبها من جسها تارة ومن عقلها أخرى ، ولا سبيل لها إلا الطريق التي حددت لنوعها وهي طريق النظر ، فذهب كل في طلبها وراء رائد الفكر . فمنهم من تأولها ببعض الحيوانات لكثرة نفعتها أو شدة ضررها ، ومنهم من يمثلك له في بعض الكواكب لظهور أثرها ، ومنهم من حبسته الأشجار والأحجار لاعتبارات له فيها ، ومنهم من تبنت له آثار قوى مختلفة في أنواع متفرقة تماثل في أفراد كل نوع وتختلف بتخالف الأنواع فجعل لكل نوع إلهاً .

ولكن كلما رق الوجدان ولطفت الأذهان ونفذت البصائر ، ارتفع الفكر وجلت النتائج ، فوصل من بلغ به عليه بعض المنازل . من ذلك إلى معرفة هذه القدرة الباهرة ، واهتدى إلى أنه قدرة واجب الوجود .

غير أن من أسرار الجبروت ما غمض عليه فلم يسلم من الخبط فيه ، ثم لم يكن له الميزة الفائقة في قومه ما يحملهم على الاهتداء بهديه فبقى الخلاف ذائلاً والرشد ضائعاً .

اتفق الناس في الإذعان لما فاق قدرهم وعلا متناول استطاعتهم ، لكنهم اختلفوا في فهم ما تلجئهم الفطرة إلى الإذعان له اختلافاً كان .

١٠٦ عجز العقل عن معرفه الله بنفسه كما يجب وحاجته إلى الوحي

أشد أثرا في التقاطح بينهم وإثارة أعاصير الشقاق فيهم ، من اختلافهم في فهم النافع والضار لغلبة الشهوات عليهم .

إن كان الإنسان قد فطر على أن يعيش في جملة ولم يمنح مع تلك الفطرة ما منحه النحل وبعض أفراد النمل مثلا من الإلهام الهادي إلى ما يلزم لذلك ، وإنما ترك إلى فكره يتصرف به على نحو ما سبق ، كما فطر على الشعور بقاهر تنساق نفسه بالرغم عنها إلى معرفته ، ولم يفيض عليه مع هذا الشعور عرفانه (١) بذات ذلك القاهر ولا صفاته . وإنما ألقى في مطارح النظر ، تحمله الأفكار في مجاريها ، وترمى به إلى حيث يدرى ، وفي كل ذلك الويل على جامعته ، والخطر على وجوده ، فهل منى هذا النوع بالنقص ورزى بالقصور عن مثل ما بلغه أضعف الحيوانات وأحطها في منازل الوجود ؟ نعم هو كذلك ، لولا ما أتاه الصانع الحكيم من ناحية ضعفه .

الإنسان عجيب في شأنه : يصعد بقوة عقله إلى أعلى مراتب

(١) لعل الأصل « عرفان » ، فإن في إضافة العرفان المتنى إلى المتنى عنه إثباتاً له فإن الأصل في مثل هذه الإضافة الملك وما في معناه . وهذا جمع بين التنى والاثبات كما بينه الإمام عبد القاهر في دلائل الإعجاز وهو ظاهر بنفسه لمن تأمله والناس عنه غافلون .

إكمال الله للإنسان ما ينقصه من هداية نوعه بالوحى ١٠٧

الملوكوت ، ويطاول بفكره أرفع معالم الجبروت ^(١) ، ويسامى بقوته ما يعظم عن أن يسامى من قوى الكون الأعظم ، ثم يصغر ويتضاءل ، وينحط إلى أدنى درك من الاستكانة والخضوع متى عرض له أمر ما لم يعرف سببه ولم يدرك منشأه ، ذلك لسر عرفه المستبصرون ، واستشعرته نفوس الناس أجمعين .

من ذلك الضعف قيد إلى هداية . ومن تلك الضعة أخذ بيده إلى شرف سعادته ، أكمل الواهب الجواد لجلته ما اقتضت حكمته في تخصيص نوعه بما يميزه عن غيره أو ينقص من أفراده ^(٢) وكما جاد على كل شخص بالعقل المصروف للحواس ، لينظر في طلب اللقمة وستر العورة والتوقى من الحر والبرد ، جاد على الجملة بما هو أمس بالحاجة في البقاء ، وآثر في الوقاية من غوائل الشقاء ، وأحفظ لنظام الاجتماع الذى هو عماد كونه بالإجماع — من عليه بالنائب الحقيقى عن المحبة ، بل الراجع بها إلى النفوس التى أفقرت منها ،

-
- (١) الملوكوت ، صيغة مبالغة للملك ولا يطلق إلا على ما لله تعالى منه دون ملك البشر ومثله الرحموت والرهبوت والجبروت وهذا من الجبر وهو إصلاح الكسر ، والملوكوت والجبروت معنى آخر فى اصطلاح الصوفية يراجع فى تعريفات السيد الجرجاني وغيرها
- (٢) أى أكمل للتجموع ما لا يصل إليه كسب الأفراد عما يفضل به النوع غيره وهو الوحى الذى هو له كالعقل للأفراد

لم يخالف سنته فيه ، من بناء كونه على قاعدة التعليم والإرشاد ، غير أنه أتاه مع ذلك من أضعف الجهات فيه وهي جهة الخضوع والاستكانة ، فأقام له من بين أفراد مرشدين هادين ، وميزهم من بينها بخصائص في أنفسهم لا يشرکهم فيها سواهم ، وأيد ذلك زيادة في الإقناع بآيات باهرات تملك النفوس ، وتأخذ الطريق على سوابق العقول ، فيستخذي الطامع . وينذل الجامع ، ويصدم بها عقل العاقل فيرجع إلى رشده ، وينير لها بصر الجاهل فيرتد عن غيه .

يطلقون القلوب بقوارع من أمر الله ، ويدهشون المدارك بيواهر من آياته ، فيحيطون العقول بما لا مندوحة عن الإذعان له ، ويستوى في الركون لما يجهلون به المالك والمملوك ، والسلطان والصلوك ، والعاقل والجاهل ، والمفضل والفاضل ، فيكون الإذعان لهم أشبه بالاضطرار من الاختيار في النظرى .

يعلونهم ما شاء الله أن يصلح به معاشهم ومعادهم ، وما أراد أن يعلوه من شئون ذاته وكال صفاته — وأولئك هم الأنبياء والمرسلون — فبعثة الأنبياء صلوات الله عليهم من متمات كون الإنسان ومن أهم حاجاته في بقاءه ، ومنزلتها من النوع منزلة العقل من الشخص نعمة أمها الله (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وستتكم على وظيفتهم بنوع من التفصيل فيما بعد .

امكان الوحي

الكلام في إمكان الوحي يأتي بعد تعريفه لتصوير المعنى الذي يراد منه ولنعرف المعنى الحاصل بالمصدر فيفهم معنى المصدر نفسه. ولا يعني لنا ماثيره الألفاظ في الأذهان. ولنذكر من اللغة ما يناسبه، يقال: وحيث إليه وأوحيت — إذا كلمته بما تخفيه عن غيره والوحي مصدر من ذلك، والمكتوب والرسالة. وكل ما ألقىته إلى غيرك ليعلمه. ثم غلب فيما يلقى إلى الأنبياء من قبل الله. وقيل: الوحي إعلام في خفاء، ويطلق ويراد به الموحى.

وقد عرفوه شرعاً: أنه إعلام الله تعالى لنبي من أنبيائه بحكم شرعي ونحوه. أما نحن فنعرفه على شرطنا بأنه عرفان بحده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة: والأول بصوت يتمثل لسمعه^(١) أو بغير صوت. ويفرق بينه وبين الإلهام بأن الإلهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى، وهو، أشبه بوجدان الجوع والعطش والجزن والسرور.

(١) كصلصلة الجرس أو كلام الملك، كما ورد في الحديث الثاني من صحيح البخارى ١ هـ من حاشية نسخة المؤلف.

أما إمكان حصول هذا النوع من العرفان (الوحى) وانكشاف ماغاب من مصالح البشر عن عامتهم لمن يختصه الله بذلك ، وسهولة فهمه عند العقل ، فلا أراه مما يصعب إدراكه إلا على من لا يريد أن يدرك ، ويجب أن يرغم نفسه الفهامة على أن لا تفهم : نعم يوجد فى كل أمة وفى كل زمان أناس يقذف بهم الطيش والنقص فى العلم إلى ما وراء سواحل اليقين ، فيسقطون فى غمرات من الشك فى كل ما لم يقع تحت 'حواسهم' الخمس ، بل قد يدركهم الريب فيما هو من متناولها كما سبقت الإشارة إليه ، فكأنهم بسقطتهم هذه انحطوا إلى ما هو أدنى من مراتب أنواع أخرى من الحيوان ، فينسبون العقل وشؤنه ، وسره ومكنونه ، ويجدون فى ذلك لذة الإطلاق عن قيود الأوامر والنواهي بل عن محابس الحشمة التى تضمهم إلى التزام ما يليق ، وتحجزهم عن مقارفة ما لا يليق ، كما هو حال غير الانسان من الحيوان ، فإذا عرض عليهم شئ من الكلام فى النبوات والأديان ، وهم من أنفسهم هام بالأصغاء ، دافوه بما أوتوا من الاختيار فى النظر ، وانصرفوا عنه ، وجعلوا أصابعهم فى آذانهم ، حذر أن يخاطب الدليل أذهانهم ، فيلزمهم العقيدة ، وتتبعها الشريعة ، فيحرموا لذة مذاقوا وما يحبون أن يتذوقوا ، وهو مرض فى الأنفس والقلوب يستشفى منه بالعلم إن شاء الله .

قلت : أى استحالة فى الوحى وأن ينكشف لفلان .
مالا ينكشف لغيره من غير فكر ولا ترتيب مقدمات ، مع العلم أن .
ذلك من قبل واهب الفكر ، ومانح النظر ، متى حفت العناية من .
ميزته هذه النعمة .

نما شهدت به البديهة أن درجات العقول متفاوتة يعلو بعضها
بعضاً ، وأن الأدنى منها لا يدرك ما عليه الأعلى إلا على وجه
من الإجمال ، وأن ذلك ليس لتفاوت المراتب فى التعليم فقط .
بل لابد معه من التفاوت فى الفطر التى لا مدخل فيها لاختيار
الإنسان وكسبه . ولا شبهة فى أن من النظريات عند بعض العقلاء .
ما هو بديهي عند من هو أرقى منه . ولا تزال المراتب ترتقى فى ذلك
إلى ما لا يحصره العدد ، وأن من أبواب الهمم وكبار النفوس ما يـ
البعيد عن صغارها (١) قريباً فيسعى إليه ثم يدركه ، والناس دو
ينكرون بدايته ، ويعجبون لنهايتها ، ثم يالفون ما صار إليه كأنه
من المعروف الذى لا ينازع ، والظاهر الذى لا يجاحد ، فإذا أنكره
منكر ثاروا عليه . ثورتهم فى بادىء الأمر على من دعاهم إليه .
ولا يزال هذا الصنف من الناس على قلته ظاهراً فى كل أمة إلى
اليوم .

فإذا سلم « ولا يحصى عن التسليم » ما أسلفنا من المقدمات

(١) أى يرى البعيد عن صغار النفوس والهمم قريباً عنده .

فمن ضعف العقل والنكول عن النتيجة اللازمة لمقدماتها عند الوصول إليها ، أن لا يسلم بأن من النفوس البشرية ما يكون لها من لقاء الجوهر بأصل الفترة ما تستعد به من محض الفيض الإلهي لأن تتصل بالآفق الأعلى ، وتنتهي من الإنسانية إلى الذروة العليا ، وتشهد من أمر الله شهود العيان ما لم يصل غيرها إلى تعقله أو تحسسه بعضا الدليل والبرهان ، وتتلقى عن العليم الحكيم ، ما يعلو وضوحا على ما يتلقاه أحدنا عن أساتذة التعاليم ، ثم تصدر عن ذلك العلم إلى تعليم ما علمت ودعوة الناس إلى ما حملت على إبلاغه إليهم ، وأن يكون ذلك سنة الله في كل أمة ، وفي كل زمان على حسب الحاجة ، يظهر برحمته من يختصه بعنايته ، لينبئ للاجتماع بما يضطر إليه من مصلحته ، إلى أن يبلغ النوع الإنساني أشده ، وتكون الأعلام التي نصبها لهدايته إلى سعادته كافية في إرشاده ، فتختم الرسالة ويغلق باب النبوة ، كما سنأتى عليه في رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم .

أما وجود بعض الأرواح العالية - وهم الملائكة المكرمون - وظهورها لأهل تلك المرتبة السامية ، فما لا استحالة فيه بعد ما عرفنا من أنفسنا ، وأرشدنا إليه العلم قديمه وحديثه من اشتغال الوجود على ما هو ألفت من المادة وإن غيب عنا ، فأى مانع من أن يكون بعض هذا الوجود اللطيف مشرقاً لشيء من العلم الإلهي ،

وأن يكون لنفوس الأنبياء اشراق عليه ، فإذا جاء به الخبر الصادق حملنا على الإذعان بصحته (١)

أما تمثل الصوت وأشباح لتلك الأرواح في حس من اختصه الله بتلك المنزلة فقد عهد عند أعداء الأنبياء ما لا يبعد عنه في بعض المصايين بأمراض خاصة على زعمهم . فقد سلموا أن بعض معقولاتهم يتمثل في خيالهم ويصل إلى درجة المحسوس فيصدق المريض في قوله إنه يرى ويسمع ، بل يجالّد ويصارع ، ولا شيء من ذلك في الحقيقة بواقع ، فإن جاز التمثل في الصور المعقولة ولا منشأ لها إلا في النفس ، وأن ذلك يكون عند عروض عارض على المخ ، فلم لا يجوز تمثيل الحقائق المعقولة في النفوس العالية ، وإن يكون ذلك لها عند ما تنزع عن عالم الحس ، وتتصل بحظائر القدس . وتكون تلك الحال من لواحق صحة العقل في أهل تلك الدرجة لاختصاص مزاجهم بما لا يوجد في مزاج غيرهم ؟ وغاية ما يلزم عنه أن يكون لعلاقة أرواحهم بأبدانهم شأن غير معروف في تلك

(١) قال في الأساس : أذن له سلس وانقاد . وأذن فلان بحق :
قر به اه وكلا المعنيين يصح هنا ولكنه في الأول أظهر

(م ٨ رسالة التوحيد)

العلاقة من سواهم^(١) وهو بما يسهل قبوله بل يتحتم ، لأن شأنهم في الناس أيضاً غير الشئون المألوفة ، وهذه المغايرة من أهم ما امتازوا به ، وقام منها الدليل على رسالتهم . والدليل على سلامه شهودهم وصحة ما يحدثون عنه : أن أمراض القلوب تشفى بدوائهم ، وأن ضعف العزائم والعقول يتبدل بالقوة في أهمهم التي تأخذ بمقالمهم ومن المنكر في البديهة : أن يصدر الصحيح من معتل ، ويستقيم النظام بمختل .

أما أرباب النفوس العالية ، والعقول السامية ، من العرفاء بمن لم تدن مراتبهم من مراتب الأنبياء ، ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم

(١) بل ثبت بتجارب الأطباء - حتى الماديين منهم - أن بعض هؤلاء المرضى يخبر ببعض المغيبات وبالأمور قبل وقوعها فيصدق . قال مريض منهم ، كثرت أخباره في ذلك ، وكان بمصر : إن فلاناً - من أقاربه - في الاسكندرية خرج من داره إلى محطتها قاصداً السفر إلى مصر لعيادتي ... ثم أخبر أنه وصل إلى محطتها ودخل القطار ، ثم شغله الطبيب بأمور تهمه حتى إذا ما جاء موعد وصول قطار الاسكندرية إلى مصر قال المريض : قد وصل القطار ونزل فلان منه ... ها هو ذا خارج من المحطة وركب مركبة تحمله إلى هنا . ثم قال : ها هو ذا قد وصل ، فإذا هو بالباب وقد دخل . فالروح التي تدرك مثل هذا - وهو غائب عنها - تعطينا دليلاً حسيّاً على إمكان ادراك روح أكل منها لعلوم من الغيب أعلى مما أدركته هي .

الفرقان بين الأولياء المكشفين والأدعياء المتشبهين ١١٥

أولياء ، وعلى شرعهم ودعوتهم أمان ، فكثير منهم نال حظهم من الأنس بما يقارب تلك الحال من النوع أو الجنس ، لهم مشاركة في بعض أحوالهم على شيء في عالم الغيب ولهم مشاهد صحيحة في عالم المثال لا تنسك عليهم لتحقيق حقائقها في الواقع ، فهم لذلك لا يستبعدون شيئاً مما يحدث به عن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم . ومن ذاق عرف ، ومن حرم انحراف . ودليل صحة ما يتحدثون به وعنه : ظهور الأثر الصالح منهم ، وسلامة أعمالهم بما يخالف شرائع أنبيائهم ، وطهارة فطرتهم بما ينكره العقل الصحيح أو يمججه الذوق السليم ، واندفاعهم بباعث من الحق الناطق في سرائرهم . المتلالي في بصائرهم ، إلى دعوة من يحف بهم إلى ما فيه خير العامة ، وترويح قلوب الخاصة ، ولا يخلو العالم من متشبهين بهم ، ولكن ما أسرع ما ينكشف حالهم ويسوء مآلهم ، ومآل من غرروا به . ولا يكون لهم إلا سوء الأثر في تضليل العقول وفساد الأخلاق ، وانحطاط شأن القوم الذين رزؤوا بهم ، إلا أن يتداركهم الله بلطفه ، فتكون كلمتهم الخبيثة كشجرة خبيثة اجتشت من فوق الأرض ما لها من قرار .

فلم يبق بين المنكرين لأحوال الأنبياء ومشاهدهم وبين الإقرار بإمكان ما أنبؤا به وبوقوعه إلا حجاب من العادة وكثيراً ما حجب العقول حتى عن إدراك أمور معتادة .

وقوع الوحي والرسالة

الدليل على رسالة نبي وصدقه فيما يحكى عن ربه ظاهر للشاهد الذى يرى حاله ، ويصبر ما آتاه الله من الآيات البينات ، ويحقق بالعيان ما يغنيه عن البيان ، كما سلف فى الوجه الأول من الكلام على الرسالة ، وأما للغائب عن زمن البعثة فدليلها التواتر ، وهو كما تبين فى علم آخر : رواية خبر عن مشهود^(١) من جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب ، وآيته : قهر النفس على اليقين بما جاء فيه ، كالإخبار بوجود مكة ، أو بأن للصين عاصمة تسمى (بكين) .

وسبب استحالة التواطؤ على الكذب استيفاء الخبر لشرائط معلومة وخلوه من عوارض تضعف الثقة به ، ومرجع كل ذلك إلى العدد ، وبعد الراوى عن التشيع لمضمون الخبر .

لانزاع بين العقلاء فى أن هذا النوع من الأخبار يحصل اليقين

(١) قوله « مشهود » أى شىء شهده المخبرون ، وحضروا وقوعه فكان معلوماً بالحس قطعاً ، كإخبار من سمعوا قولاً بأنهم سمعوه . ومنه تواتر القرآن وبعض الأخبار دون كتب أهل الكتاب ، فانه ليس عندهم أسانيد متصلة فى نقلها لا متواترة ولا أحادية .

١١٧ صفات الرسل الذين ثبتت رسالتهم بالتواتر وأثرهم

بالخير به ، وإنما النزاع في اعتبارات تتعلق به . ومن الأنبياء ما استوفى الخير عنهم شرائط النواتر ، كإبراهيم وموسى وعيسى . وما جاء به الخير: أنهم لم يكرهوا فيمن بعثوا بينهم بالآقوى سلطاناً ، ولا بالأكثر مالاً ، ولم يختصهم أحد بالعناية بهم لتعليمهم علم مادعوا إليه ، وغاية الأمر : أنهم لم يكونوا من الأذنين الذين تعافهم النفوس . وتنبؤ عنهم الأنظار ، ومع ذلك واستحكام السلطان اغيهم ووفرة المال لديه ، واستعلائه عليهم بما كسب من العلم ، قاموا بدعوة الناس إلى الله على رغم الملوك وأجنادهم ، وصاحوا بهم صيحة زلزلتهم في عروشهم ، وادعوا أنهم يبلغون عن خالق السموات والأرض ما أراد شرعه للناس ، وأقاموا من الدليل ما تصاغرته دونه قوة المعارضة ، ثم ثبتت في الكون شرائعهم ثبات الغريزة في الفطر ، وكان الخير لأنهم في اتباع ما جاءوا به . حالفهم القوة واحتضنتهم السعادة ما كانوا قائمين عليها ، ورزأهم الضعف وغالهم الشقاء ما انخرقوا عنها وخطوا فيها ، فهذا وما أقاموه من الأدلة عند التحدى لا يصلح معه في العقل أن يكونوا كاذبين في حديثهم عن الله ، ولا في دعواهم أنه كان يوحى إليهم ما شرعوا للناس ، على أن من لا يعتقد ما يقول لا يبق لمقاله أثر في العقول ، والباطل لا بقاء له إلا في الغفلة عنه ؛ كالنبات الخبيث في الأرض

الطيبة ينبت بإهمالها ، وينمو (١) بإغفالها ، فإذا لامستها عناية يد
الزارع غلبه الخصب وذهب به الزكاء ، واسكن تلك الديانات التي
جاء بها أولئك الأنبياء قامت في العالم الإنساني ما شاء الله بما قدر لها
مقام سائر قواه ، مع كثرة المعارضين ، وقوة سلطان المغالبيين ، فلا
يمكن أن يكون أسها الكذب ودعائها الحيلة ، وكلامنا هذا في
جوهرها الذي يلوح دائماً في خلال ما ألحق بها المبتدعون .

وأما بقية الرسل مما يجب علينا الإيمان بهم (٢) فيكن في إثبات
نبوتهم إثبات رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم فقد أخبرنا برسالتهم
وهو الصادق فيما بلغ به ، وسنأتى على الكلام في رسالة نبينا محمد
صلى الله عليه وسلم في باب على حدته إن شاء الله .

(١) نما ينمو لغة ضعيفة في نبي ينمى ، شاع استعمالها في عصرنا
(٢) أى بالتفصيل ، وهم الذين صرح القرآن برسالتهم وذكرهم
باسماتهم . وعددهم ٢٣ أو ٢٤ أو ٢٥ خلاف

وظيفة الرسل عليهم السلام

تبين مما تقدم في حاجة العالم الإنساني إلى الرسل أنهم من الأمم بمنزلة العقول من الأشخاص ، وأن بعثتهم حاجة من حاجات العقول البشرية ، قضت رحمة المبدع الحكيم بسدادها ، ونعمة من نعم واهب الوجود ميز بها الإنسان عن بقية الكائنات من جنسه - ولكنها حاجة روحية ، وكل مالا مس الخس منها فالقصد فيه إلى الروح وتطهيرها من دنس الأهواء الضالة ، أو تقويم ملكاتها أو إيداعها مافيه سعادتها في الحياتين .

وأما تفصيل طرق المعيشة والخلق في وجوه الكسب ، وتناول شهوات العقل إلى درك ما أعد للوصول إليه من أسرار العلم ، فذلك مما لا دخل للرسالات فيه إلا من وجه العظة العامة والإرشاد إلى الاعتدال فيه ، وتقرير أن شرط ذلك كله أن لا يحدث ريباً في الاعتقاد بأن للكون إلهاً واحداً قادراً عالمياً حكماً متصفاً بما أوجب الدليل أن يتصف به ، وباستواء نسبة الكائنات إليه في أنها مخلوقة له وصنع قدرته ، وإنما تفاوتها فيما اختص به بعضها من الكمال ، وشرطه أن لا ينال شيء من تلك

الأعمال السابقة أحداً من الناس بشر في نفسه أو عرضه أو ماله
بغير حق يقتضيه نظام عامة الأمة على ما حدد في شريعته .

يرشدون العقل إلى معرفة الله وما يجب أن يعرف من صفاته ،
ويبينون الحد الذي يجب أن يقف عنده في طلب ذلك العرفان (١)
على وجه لا يشق عليه الاطمئنان إليه (٢) ولا يرفع ثقته بما آتاه الله
من القوة ، يجمعون كلمة الخلق على إله واحد لا فرقة معه ، ويخلون
السبيل بينهم وبينه وحده (٣) ، وينهضون نفوسهم إلى التعلق به في
جميع الأعمال والمعاملات ، ويذكرونهم بعظمته بفرض ضروب
من العبادات فيما اختلف من الأوقات ، تذكراً لمن ينسى ، وتركياً
مستمرة لمن يخشى ، تقوى ما ضعف منهم ، وتزيد المستيقن
يقيناً .

يبينون للناس ما اختلفت عليه عقولهم وشهواتهم ، وتنازعت
مصالحهم ولذاتهم ، فيفصلون في تلك المخاصمات بأمر الله الصادع ،

(١) هو أن لا يبحث عن كنه ذاته وصفاته كما تقدم (٢) لأنه
لا يصل إلى المستحيل الذي يتوقف التسليم به على نبذ العقل الذي هو
مشرق الايمان (٣) أى يدعو به ويتقربون إليه بما شرع لهم من الدين
لا بوسائل من الخلق تقربهم اليه كحجج الملوك ووزرائهم

أصول شرائع الرسل من الحقوق والفضائل ١٢١

ويؤيدون بما يبلغون عنه ما تقوم به المصالح العامة ، ولا تقوت به المنافع الخاصة^(١) .

يعودون بالناس إلى الألفة ، ويكشفون لهم سر المحبة ، ويلفتونهم إلى أن فيها انتظام شمل الجماعة ، ويفرضون عليهم مجاهدة أنفسهم ليستوطنوها^(٢) قلوبهم ، ويشعرونها أقدمتهم ، يعلمونهم لذلك أن يرعى كل حق الآخر وإن كان لا يغفل حقه ، وأن لا يتجاوز في الطلب حده ، وأن يعين قويمهم ضعيفهم ، ويمد غنيهم فقيرهم ، ويهدى راشدهم ضالهم . ويعلم عالمهم جاهلهم .

يضعون لهم بأمر الله حدوداً عامة يسهل عليهم أن يردوا إليها أفعالهم ، كاحترام الدماء البشرية إلا بحق مع بيان الحق الذي تهدر له ، وحظر تناول شيء مما كسبه الغير إلا بحق ، مع بيان الحق الذي يبيح تناوله ، واحترام الأعراض ، مع بيان ما يباح وما يحرم من الألباع ، ويشجعون لهم مع ذلك أن يقوموا أنفسهم بالملكات الفاضلة كالصدق والأمانة والوفاء بالعقود والمحافظة على العهد^(٣) والرحمة بالضعفاء والإقدام على نصيحة الأقوياء ، والاعتراف لكل مخلوق بحقه بلا استثناء^(٤) .

(١) أى كالزكاة (٢) أى المحبة (٣) ومنها المعاهدات الدولية مع الأجانب (٤) أى لافرق فيه بين مسلم وكافر وقوى وضعيف وقريب وبعيد .

يحملونهم على تحويل أهوائهم عن اللذائذ الفانية ، إلى طلب
الرغائب السامية ، آخذين في ذلك كله بطرف من الترغيب
والترهيب والإنذار والتبشير ، حسبما أمرهم الله جل شأنه .

يفصلون في جميع ذلك للناس ما يؤهلهم لرضا الله عنهم ، وما
يعرضهم لنسخه عليهم ، ثم يحيطون ببيانهم ببناء الدار الآخرة وما
أعد الله فيها من الثواب وحسن العقبي لمن وقف عند حدوده ،
وأخذ بأوامره وتجنب الوقوع في محظوراته .

يعلمونهم من أنباء الغيب ما أذن الله لعباده في العلم به (١) بما
لو صعب على العقل اكتناؤه ، لم يشق عليه الاعتراف بوجوده .
بهذا تطمئن النفوس ، وتتلج الصدور ، ويعتصم المرزوء بالصبر
انتظاراً لجزيل الأجر ، أو إرضاء لمن بيده الأمر ، وبهذا ينحل
أعظم مشكل في الاجتماع الإنساني لا يزال العقلاء يجهدون أنفسهم
في حلة إلى اليوم (٢) .

(١) كالملائكة والجن وأحوال الآخرة .

(٢) يعني مشكل العمال وما نشأ عنه من الاشتراكية والفوضوية
بأنواعها وأوربة كلها في حيرة من تلافى هذا الأمر . ويسهل تلافيه
بالدين الإسلامي الذي فرض الزكاة وأمر بالصدقة ، وهدى النفس إلى
الرضا بما قسم لها . طلباً لسعادة الآخرة مع بذل الجهد في السعي .

تعليم الفنون والصناعة والزراعة ليس من وظائف الرسل ١٢٣

ليس من وظائف الرسل ما هو عمل المدرسين ومعلمي الصناعات فليس بما جاء والاه تعليم التاريخ . ولا تفصيل ما يحويه عالم البكواكب ولا بيان ما اختلف من حركاتها . ولا ما استكن من طبقات الأرض . ولا مقادير الطول فيها والعرض . ولا ما تحتاج إليه النباتات في نموها . ولا ما تقتقر إليه الحيوانات في بقاء أشخاصها وأنواعها ، وغير ذلك مما وضعت له تلك العلوم وتسابقت في الوصول إلى دقائقه الفهوم . فإن ذلك كله من وسائل الكسب وتحصيل طرق الراحة . هدى الله إليه البشر بما أودع فيهم من الإدراك . يزيد من سعادة المحصلين . ويقضى فيه بالنسك على المقصرين ، ولكن كانت سنة الله في ذلك أن يتبع طريقة التدرج في الكمال ، وقد جاءت شرائع الأنبياء بما يحمل على الإجمال بالسعى فيه وما يكفل التزامه الوصول إلى ما أعد الله له الفطر الإنسانية من مراتب الارتقاء .

وأما ما ورد في كلام الأنبياء من الإشارة إلى شيء مما ذكرنا في أحوال الأفلاك أو هيئة الأرض : فإنما يقصد منه النظر إلى ما فيه من الدلالة على حكمة مبدعه ، أو توجيه الفكر إلى الغوص لإدراك أسرارهِ وبدائعه ، ولتثمهم عليهم الصلاة والسلام في مخاطبة أمهم لا يجوز أن تكون فوق ما يفهمون والإضاعت الحكمة في إرسالهم ،

١٢٤ هداية الدين إلى طلب العرفان واحترام البرهان

ولهذا قد يأتي التعبير الذي سبق إلى العامة بما يحتاج إلى التأويل والتفسير عند الخاصة ، وكذلك ماوجه إلى الخاصة يحتاج إلى الزمان الطويل حتى يفهمه العامة ، وهذا القسم أقل ماورد في كلامهم (١) .

على كل حال لايجوز أن يقام الدين حاجزاً بين الأرواح وبين ماميزها الله به من الاستعداد للعلم بحقائق الكائنات الممكنة بقدر الإمكان . بل يجب أن يكون الدين باعثاً لها على طلب العرفان ، مطالباً لها باحترام البرهان ، فارضاً عليها أن تبذل ما تستطيع من الجهد في معرفة ما بين يديها من العوالم ، ولكن مع التزام القصد ، والوقوف في سلامة الاعتقاد عند الحد ، ومن قال غير ذلك فقد جهل الدين ، وجنى عليه جناية لا يغفرها له رب العالمين .

(١) أى إذا كان القسم الأول الذي يحتاج إلى التأويل والتفسير قليلاً كما تدل عليه كلمة (قد) فهذا أقل منه : وأكثر كلامهم يفهمه جميع العارفين بلغتهم على تفاوت عظيم في الفهم يرفع بعضهم درجات في العلم

اعتراض مشهور

قال قائل : إن كانت بعثة الرسل حاجة من حاجات البشر ، وكالا
 لنظام اجتماعهم ، وطريقا لسعادتهم الدنيوية والآخروية ، فما بالهم
 لم يزالوا أشقياء ، عن السعادة بعداء ، يتخالفون ولا يتفقون ،
 يتقاتلون ولا يتناصرون ، يتناهبون ولا يتناصفون ، كل يستعد
 للوثبة ، ولا ينتظر إلا مجيء النبوة ، حشو جلودهم الظلم ، وملء
 قلوبهم الطمع ؛ عد أهل كل دى دين دينهم حجة لمقارعة من خالفهم
 فيه ، واتخذوا منه سبباً جديداً للعداوة والعدوان فوق ما كان من
 اختلاف المصالح والمنافع ، بل أهل الدين الواحد قد تنشق عصاهم
 وتختلف مذاهبهم في فهمه ، وتتفارق عقولهم في عقائدهم ، ويثور
 بينهم غبار الشر ، وتتشبث أهواؤهم بالفتن فيفسكون دماءهم ،
 ويخربون ديارهم إلى أن يغلب قلوبهم ضعيفهم ، فيستقر الأمر للقوة
 لا للحق والدين ، فما هو ذا الدين الذي تقول : إنه جامع الكلمة
 ورسول المحبة ، كان سبباً في الشقاق ومضراً للصخينة فما هذه
 الدعوى وما هذا الأثر ؟

نقول في جوابه : نعم كل ذلك قد كان ، ولكن بعد زمن الأنبياء
 وانقضاء عهدهم ؛ ووقوع الدين في أيدي من لا يفهمه أو يفهمه

١٢٦ إنما إصلاح الأمم بالوجدان الدينى دون البرهان المنطقى .

ويغلو فيه . أو لا يغلو فيه ، ولكن لم يمتزج حبه بقلبه ، أو امتزج بقلبه حب الدين ولكن ضاقت سعة عقله عن تصريفه تصرف الأنبياء أنفسهم ، أو الخيرة من تبعهم ، وإلا فقل لنا : أى نبي لم يأت أمته بالخير الجم ، والفيض الأعم . ولم يكن دينه وافياً بجميع ما كانت تمس إليه حاجتها ، فى أفرادها وجمليتها ؟

أظن أنك لا تخافنا فى أن الجمهور الأعظم من الناس - بل الكل إلا قليلا - لا يفهمون فلسفة أفلاطون ، ولا يقيسون أفكارهم وآراءهم بمنطق أرسطو ، بل لو عرض أقرب المحقولات إلى العقول عليهم بأوضح عبارة يمكن أن يأتى بها معبر لما أدركوا منها إلا خيالا لا أثر له فى تقويم النفس ، ولا فى إصلاح العمل ، فاعتبر هذه الطبقات فى حالها التى لا تفارقها من تلاعب الشهوات بها . ثم انصب نفسك واعظا بينها فى تخفيف بلاء ساقه النزاع إليها ، فأى الطرق أقرب إليك فى مهاجمة شهواتها وردها إلى الاعتدال فى رغائبها ؟

من البديهي أنك لا تجد الطريق الأقرب فى بيان " مضار الإسراف فى الرغب ، وفوائد القصد فى الطلب ، وما ينحونحو ذلك عما لا يصل إليه أرباب العقول السامية إلا بطول النظر ، وإنما تجد أقصر الطرق وأقومها أن تأتى إليه من نافذة الوجدان المطة على

(١) قوله فى بيان الخ هو المفعول الثانى لقوله لا تجد .

سر القهر المحيط به من كل جانب ، فتذكره بقدره الله الذى وهبه ما وهب ، الغالب عليه فى أدنى شئونه إليه ، المحيط بما فى نفسه ، الآخذ بأزمة همه ، وتسوق إليه من الأمثال فى ذلك ما يقرب إلى فهمه ، ثم تروى له ما جاء فى الدين المعتقد به من مواعظ وعبر ، ومن سير السلف فى ذلك الدين ما فيه أسوة حسنة ، وتنعش روحه بذكر رضا الله عنه إذا استقام ، وسخطه عليه إذا تقحم ، عند ذلك يخشع منه القلب ، وتدمع العين ، ويستخذى الغضب ، وتخمد الشهوة ، والسامع لم يفهم من ذلك كله إلا أنه يرضى الله وأوليائه . إذا أطاع ، ويسخطهم إذا عصى ، ذلك هو المشهود من حال البشر غابرم وحاضرهم ، ومنسكركه يسم نفسه أنه ليس منهم .

كم سمعنا أن عيوناً بككت ، وزفرات صعدت ، وقلوباً خشعت لواعظ الدين ، لكن هل سمعت بمثل ذلك بين يدي نصاح الأدب . وزعماء السياسة ؟ متى سمعنا أن طبقة من طبقات الناس يغلب الخير على أعمالهم لما فيه من المنفعة لعامتهم أو خاصتهم ، وينفى الشر من بينهم لما يجلبه عليهم من مضار ومهالك ؟ هذا أمر لم يعهد فى سير البشر ، ولا ينطبق على فطرهم ، إنما قسوام الملكات هو العقائد والتقاليد^(١) ولا قيام للأميرين إلا بالدين ، فعامل الدين هو أقوى .

(١) التقاليد هي العادات الموروثة قاله المؤلف فى الدرس

١٢٨ منزلة النبوة من الاجتماع منزلة العقل والحواس من الأفراد

العوامل في أخلاق العامة ، بل والخاصة ، وسلطانه على نفوسهم
أعلى من سلطان العقل الذى هو خاصة نوعهم .

قلنا : إن منزلة النبوة من الاجتماع هى منزلة العقل من الشخص
أو منزلة العلم المنصوب على الطريق المسلك ، بل نصعد إلى ما فوق
ذلك ونقول : منزلة السمع والبصر ، أليس من وظيفة الباصرة
التمييز بين الحسن والقبيح من المناظر ، وبين الطريق السهلة السلوك
والمعابر الوعرة ؟ ومع ذلك فقد يسيء البصير استعمال بصره
فيتردى فى هاوية يهلك فيها وعينه سليمان تلعان فى وجهه — يقع
ذلك لطيش أو إهمال أو غفلة أو لجاج وعناد . وقد يقوم من
العقل والحس ألف دليل على مضرة شيء ، ويعلم ذلك الباغي فى
رأيه من أهل الشر ، ثم يخالف تلك الدلائل الظاهرة ويقتحم
المكروه لقضاء شهوة اللجاج أو نحوها ولكن وقوع هذه الأمثال
لا ينقص من قدر الحسن أو العقل فيما خلق لأجله — كذلك
الرسول عليهم السلام أعلام هدايا نصبها الله على سبيل النجاة فمن
الناس من اهتدى بها فانتهى إلى غايات السعادة ، ومنهم من غلط فى
فهمها أو انحرف عن هديها فانكب فى مهاوى الشقاء — فالدين
هاد ، والنقص يعرض لمن دعوا إلى الاهتداء به ، ولا يطعن
نقصهم فى كماله واشتداد حاجتهم إليه (٢ : ٢٦) يضل به كثيراً
ويهدى به كثيراً ، وما يضل به إلا الفاسقين) .

الإن الدين مستقر السكينة ، ولجأ الطمأنينة ، به يرضى كل بما قسم له ، وبه يدأب عامل حتى يبلغ الغاية من عمله ، وبه تخضع النفوس إلى أحكام السنن العامة في الكون ، وبه ينظر الإنسان إلى من فوقه في العلم والفضيلة ، وإلى من دونه في المال والجاه ، اتباعا لما وردت به الأوامر الإلهية .

الدين أشبه بالبواغث الفطرية الإلهامية منه بالدواعي الاختيارية ، الدين قوة من أعظم قوى البشر ، وإنما قد يعرض عليها من العلل ما يعرض لغيرها من القوى ، وكل ما وجه إلى الدين من مثل الاعتراض الذي نحن بصدده فتبعته في أعناق القائمين عليه ، الناصبين أنفسهم منصب الدعوة إليه ، أو المعروفين بأنهم حفظته ورعاة أحكامه . وما عليهم في إبلاغ القلوب بغيثها منه إلا أن يهتدوا به ، ويرجعوا إلى أصوله الطاهرة الأولى ، ويضعوا عنه أوزار البدع ، فترجع إليه قوته وتظهر للأعشى حكته .

ربما يقول قائل : إن هذه المقابلة بين العقل والدين تميل إلى رأى القائلين بإهمال العقل بالمرّة في قضايا الدين . وبأن أساسه هو التسليم المحض ، وقطع الطريق على أشعة البصيرة أن تنفذ إلى فهم ما أودعه من معارف وأحكام : فنقول : لو كان الأمر كما عساه أن يقال لما كان الدين علماً يهتدى به ، وإنما الذي سبق تقريره : هو أن العقل

وحده لا يستقل بالوصول إلى ما فيه سعادة الأمم بدون مرشد إلهي، كما لا يستقل الحيوان في إدراك جميع المحسوسات بحاسة البصر وحدها، بل لا يد معها من السمع لإدراك المسموعات مثلاً^(١) كذلك الدين هو حاسة عامة لكشف ما يشبهه على العقل من وسائل السعادات، والعقل هو صاحب السلطان في معرفة تلك الحاسة وتصريفها فيما منحت لأجله والإذعان لما تكشف له من معتقدات وحدود أعمال.

كيف ينكر على العقل حقه في ذلك وهو الذي ينظر في أدلتها ليصل منها إلى معرفتها، وأنها آتية من قبل الله - وإنما على العقل بعد التصديق برسالة نبي أن يصدق بجميع ما جاء به، وإن لم يستطع الوصول إلى كنه بعضه والنفوذ إلى حقيقته، ولا يقضى عليه ذلك بقبول ما هو من باب المحال المؤدى إلى مثل الجمع بين النقيضين، أو بين الضدين في موضوع واحد في آن واحد، فإن ذلك بما تنزه النبوات عن أن تأتي به. فإن جاء ما يوهم ظاهر ذلك في شيء من الوارد فيها وجب على العقل أن يعتقد أن الظاهر غير مراد، وله الخيار بعد ذلك في التأويل مسترشداً ببقية ما جاء على لسان

(١) قال المؤلف في الدرس: هذه القضية مهمة تصدق بالبعض فلا يناقضها أن بعض الديدان له حاسة واحدة يدرك بها كل ما يحتاج إلى إدراكه

من ورد المتشابه في كلامه ، وفي التفويض إلى الله في علمه : وفي سلفنا من الناجين من أخذ بالاول ومنهم من أخذ بالثاني .

رسالة محمد صلى الله عليه وسلم

ليس من غرضنا في هذه الوريقات أن نلم بتاريخ الأمم عامة وتاريخ العرب خاصة في زمن البعثة المحمدية ، لنبين كيف كانت حاجه سكان الأرض ماسة إلى قارعة نهز عرش الملوك وتزلزل قواعد سلطانهم العاشم ، وتخفف من أبصارهم المعقودة بعنان السماء (١) إلى من دونهم من رعاياهم الضعفاء ، وإلى نار تنقض من سماء الحق على أدُم الأنفس البشرية لتأكل ما اعشوشبت به من الأباطيل القاتلة للعقول ، وصيحة فصحي تزعج الغافلين ، وترجع بالباب الداهلين ، وتنبيه المرءوسين إلى أنهم ليسوا بأبعد عن البشرية من الرؤساء الظالمين ، والهداة الضالين والقادة الغارين ، وبالجملة تثوب بهم إلى رشد يقيم الإنسان على الطريق التي سنّها الله له (إنا هدينه السبيل (٢)) ليبلغ بسلوكم كماله ، ويصل على نهجها إلى ما أعد في الدارين له ، ولكننا نستعير من التاريخ كلمة يفهمها من نظر فيما اتفق عليه مؤرخو ذلك العهد نظر إمعان وإنصاف .

(١) ضرب من التمثيل كما هو ظاهر وصرح به المؤلف في الدرس وكذلك قوله : وإلى نار ، وقس على ذلك (٢) قال المؤلف في الدرس : المراد بالسبيل والطريق ، فطرة الله التي فطر الناس عليها .

كانت دولتنا العالم (١) دولة الفرس في الشرق ودولة الرومان في الغرب - في تنازع وتجادل مستمر : دماء بين العالمين مسفوكة ، وقوى منهوكة ، وأموال هالكة ، وظلم من الإحن حالكة ، ومع ذلك فقد كان الزهو والترف والإسراف والفخفخة والتفنن في الملاذ بالغة حد ما لا يبرصف في قصور السلاطين والأمراء والقواد ورؤساء الأديان من كل أمة . وكان شره هذه الطبقة من الأمم لا يقف عند حد ، فزادوا في الضرائب وبالغوا في فرض الإتاوات حتى أثقلوا ظهور الرعية بمطالبهم ، وأتوا على ما في أيديها من ثمرات أعمالها . وانحصر سلطان القوى في اختطاف ما يبد الضعيف وفكر العاقل ، في الاختيال لسلب الغافل ، وتبع ذلك أن استولى على تلك الشعوب من ضروب الفقر والذل والاستكانة والخوف والاضطراب لفقد الأمن على الأرواح والأموال .

غمزت مشيئة الرؤساء إرادة من دونهم فعاد هؤلاء كأشباح اللاعبين يديرها من وراء حجاب ، ويظنها الناظر إليها من ذوى

(١) بيان للكلمة التي استعارها من التاريخ قال في الدرس : وفاتني وقت الكتابة ذكر دولة الصين فانها كانت أيضاً ممزقة بالحروب الأهلية ومع التركان وسندكرها في طبعة ثانية .

استعباد الملوك والرؤساء للأمم وإفساد دينها وديانها ١٣٣

الآلأباب ، ففقد بذلك الاستقلال الشخصى ، وظن أفراد الرعايا أنهم لم يخلقوا إلا لخدمة ساداتهم ، وتوفير لذاتهم ، كما هو الشأن فى العجاوات مع من يقتنيها، ضلت السادات فى عقائدها وأهوائها ، وغلبتها على الحق والعدل شهواتها ، ولكن بقى لها من قوة الفكر أردأ بقاياها ، فلم يفارقها الحذر من أن بصيص النور الإلهى الذى يخاطب الفطر الإنسانية قد يفتق الغلف التى أحاطت بالقلوب ، ويمزق الحجب التى أسدلت على العقول ، فتتهدى العامة إلى السبيل ، ويشور الجهم الغفير على العدد القليل ، ولذلك لم يغفل الملوك والرؤساء أن ينشئوا سحبا من الآوهام ، ويهيشوا كسفا من الآباطيل والخرافات ، ليقذفوا بها فى عقول العامة ، فيغلظ الحجاب ويعظم الرين ، ويحتق بذلك نور الفطرة ، ويتم لهم ما يريدون من المغلوبين لهم، وصرح الدين بلسان رؤسائه أنه عدو العقل ، وعدو كل ما يشمره النظر ، إلا ما كان تفسيراً لكتاب مقدس ، وكان لهم فى المشارب الوثنية ينابيع لا تنضب ، ومدد لا ينفد .

هذه حالة الأقوام كانت فى معارفهم ، وذلك كان شأنهم فى معاشهم ، عبيد أذلاء ، حيارى فى جمالة عمياء ، اللهم إلا بعض شوارد من بقايا الحكمة الماضية ، والشرائع السابقة ، آوت إلى بعض الأذهان ، ومعها مقت الحاضر ، ونقص العلم بالغابر .

ثارت الشبهات على أصول العقائد وفروعها بما انقلب من الوضع وانعكس من الطبع ، فكان يرى الدنس في مظنة الطهارة ، والشره حيث تنتظر القناعة ، والدعارة حيث ترجى السلامة والسلام ، مع قصور النظر عن معرفة السبب ، وانصرافه لأول وهلة إلى أن مصدر كل ذلك هو الدين ، فاستولى الاضطراب على المدارك ، وذهب بالناس مذهب الفوضى في العقل والشرية معاً ، وظهرت مذاهب الإباحين والدهريين في شعوب متعددة ، وكان ذلك ويلا عليها فوق ما رزئت به من سائر الخطوب .

وكانت الأمة العربية قبائل متخالفة في النزعات ، خاضعة للشهوات ، نخر كل قبيلة في قتال أختها ، وسفك دماء أبطالها ، وسبي نساها ، وسلب أموالها ، تسوقها المطامع ، إلى المعامع ، ويزين لها السيئات ، فساد الاعتقادات ، وقد بلغ العرب من سخافة العقل حداً صنعوا فيه أصنامهم من الحلوى ثم عبدوها ، فلما جاعوا أكلوها ، وبلغوا من تضعف الأخلاق وهناً قتلوا فيه بناتهم تخلصاً من عار حياتهن أو تنصلاً من نفقات معيشتن ، وبلغ الفحش منهم مبلغاً لم يعد معه للعفاف قيمة ، وبالجملة فكانت ربط^(١) النظام الاجتماعي قد

(١) الربط بضمينتين : جمع رباط وهو ما يربط به .

مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم وبينته وبينته وصفة نشأته ١٣٥

تراخت عقدها في كل أمة ، وانفصمت عراها عند كل طائفة^(١) .
أفلم يكن من رحمة الله بأولئك الأقوام أن يؤدبهم برجل منهم
يوحى إليه رسالته ، ويمنحه عنايته ، ويمده من القوة بما يتمكن معه
من كشف تلك الغمم ، التي أظلت رموس جميع الأمم ؟ نعم كان
ذلك وله الأمر من قبل ومن بعد .

في الليلة الثانية عشرة^(٢) من ربيع الأول عام الفيل « ٢٠ أبريل
سنة ٥٧١ من ميلاد المسيح عليه السلام » ولد محمد بن عبد الله بن
عبد المطلب بن هاشم القرشي بمكة . ولد يتيماً ، توفي والده قبل أن
يولد ، ولم يترك له من المال إلا خمس جمال وبعض نعاج^(٣) وجارية

(١) يستدرك هنا أن العرب كانوا يفضلون جميع الأمم بصفات
وأخلاق كانت سبب ظهور المصلح الأعظم منهم كاستقلال الفكر ،
وقوة الإرادة ، والشجاعة والنجدة ، والجود والايثار ، وحماية الجار
إذ لم يستعبدوا الرؤساء دينيين ولاسياسيين . وما ذكر من العيوب فيهم
كواد البنات لم يكن كله فاشياً في جميع بلادهم وقبائلهم ، وكان زنا الحرائر
نادراً ويعد من انكر المنكرات

(٢) هذا هو المشهور الذي عليه الناس في تقاويمهم واحتفالاتهم
بذكرى المولد النبوي وهو أحد الأقوال . والأصح عند المحدثين أنه
ولد في الليلة التاسعة منه (٣) قيل خمس ، وقيل تسع .

١٣٦ حفظ الله له صلى الله عليه وسلم من جميع مفاسد الجاهلية

ويروى أقل من ذلك . وفي السنة السادسة من عمره فقد والدته أيضاً فاحتضنه جده عبد المطلب . وبعد سنتين من كفالته توفي جده فكفله من بعده عمه أبو طالب وكان شهما كريماً غير أنه كان من الفقر بحيث لا يملك كفاف أهله . وكان صلى الله عليه وسلم من بني عمه وصية قومه كأحدهم على ما به من يتم فقد فيه الأبوين معا ، وفقر لم يسلم منه الكافل والمكفول ، ولم يقيم على تربيته مهذب ، ولم يعن بتثقيفه مؤدب ، بين أتراب من نبت الجاهلية ، وعشراء من حلفاء الوثنية ، وأولياء من عبدة الأوهام ، وأقرباء من حفدة الأصنام ، غير أنه مع ذلك كان ينمو ويتكامل بدنا وعقلا ، وفضيلة وأدبا ، حتى عرف بين أهل مكة وهو في ريعان شبابه بالأمين : أدب إلهي لم تجر العادة بأن تزين به نفوس الأيتام من الفقراء ، خصوصاً مع فقر القوام ، فاكتمل عليه وسلم كاملاً والقوم ناقصون ، رقيقاً والقوم منحطون ، وموحداً وهم وثنيون ، سلمياً وهم شاغبون (١) صحيح الاعتقاد وهم واهمون مطبوعاً على الخير وهم به جاهلون ، وعن سبيله عادلون .

(١) استشهد المؤلف لهذا في الدرس بقصة اختلاف القبائل في وضع الحجر الأسود يوم بناء الكعبة حتى كادوا يتقاتلون ، واتفاقهم على تحكيمه لآماتته والتزامه الحق وما كان من إصلاحه بينهم بما أَرْضاهم كلهم .

من السنن المعروفة أن يتيماً فقيراً أمياً مثله تنطبع نفسه بما تراه من أول نشأته إلى زمن كهولته ، ويتأثر عقله بما يسمعه من يخالطه ولا سيما إن كان من ذوى قرابته ، وأهل عصبته ، ولا كتاب يرشده ولا أستاذ ينهيه ، ولا عضد إذا عزم يؤيده ، فلو جرى الأمر فيه على جرى السنن لنشأ على عقائدهم ، وأخذ بمذاهبهم ، إلى أن يبلغ مبلغ الرجال ، ويكون للفكر والنظر مجال ، فيرجع إلى مخالفتهم ، إذا قام له الدليل على خلاف ضلالاتهم ، كما فعل القليل ممن كانوا على عهده " ولكن الأمر لم يجر على سنته ، بل بغضت إليه الوثنية من مبدأ عمره ، فعاجلته طهارة العقيدة ، كما بادره حسن الخليقة ، وما جاء في الكتاب من قوله : (ووجدك ضالاً فهدى) لا يفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء إلى التوحيد ، أو على غير السبيل القويم ، قبل الخلق العظيم ، حاش لله إن ذلك هو الإفك الممين ، وإنما هي الخيرة تلم بقلوب أهل الإخلاص ، فيما يرجون للناس من الخلاص ، وطلب السبيل إلى ما همدوا إليه من إنقاذ الهالكين ، وإرشاد الضالين . وقد هدى الله نبيه إلى ما كانت تتلبسه بصيرته باصطفائه لرسالته واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته .

وجد شيئاً من المال يسد حاجته « وقد كان له في الاستزادة منه ما يرفقه معيشته » بما عمل للخدمة رضى الله عنها في تجارتها ، وبما اختارته بعد ذلك زوجها لها ، وكان فيما يجتنيه من ثمرة عمله غناء له ، وعون على بلوغه ما كان عليه أعظم قومه ، لكنه لم ترقه الدنيا . ولم تغره زخارفها ، ولم يسلك ما كان يسلكه مثله في الوصول إلى ما ترغبه الأنفس من نعيمها ، بل كلما تقدمت به السن زادت فيه الرغبة عما كان عليه الكافة . ونما فيه حب الانفراد والانعطاع إلى الفكر والمراقبة . والتحدث بمناجاة الله تعالى ، والتوسل إليه في طلب المخرج من همه الأعظم في تحليلص قومه ، ونجاة العالم من الشر الذي تولاه — إلى أن انفتق له الحجاب عن عالم كان يحته إليه الإلهام الإلهي (١) ، وتجلي عليه النور القدسي ، وهبط عليه الوحي من المقام العلي . في تفصيل ليس هذا موضعه .

لم يكن من آباءه ملك فيطالب بما سلب من ملكه . وكانت

(١) أى من غير شعور منه . ويظن الباحثون في سيرته (ص) من غير المسلمين كما يظن كثير من المسلمين أنه (ص) كان يستشرف للنبوة ويرجوها ولا سيما في عهد تحته في غار حراء . ولكن الله تعالى يقول: (وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا راحة من ربك) أى لكن أتى إليك راحة من ربك لم تكن ترجوها ، ويؤيد هذا المعنى خوفه (ص) على نفسه عندما فجأه ملك الوحي في حراء كما ثبت في حديث الصحيحين

لا باعث على انتداب محمد لهداية الأمم غير الوحي ١٣٩

نفوس قومه في انصراف تام عن طلب مناصب السلطان ، وفي قناعة بما وجدوه من شرف النسبة إلى المكان ، دل عليهما ما فعل جده عبد المطلب عند زحف أبرهة الحبشى على ديارهم ، جاء الحبشى ليلتقم من العرب بهدم معبدهم العام ، ويتهم الحرام ، ومتجع حجيجهم ، ومستوى العلية من آلهتهم ، ومنتهى حجة القرشيين في مفارقتهم لبني قومههم . وتقدم بعض جنده فاستاق عدداً من الإبل فيها لعبد المطلب مائتا بعير ، وخرج عبد المطلب في بعض قریش لمقابلة الملك فاستدناه وسأله حاجته . فقال : هي أن ترد إلى مائتي بعير أصبتها لي ، فلامه الملك على المطلب الحقير ، وقت الخطب الخطير ، فأجابه : أنا رب الإبل ، وأما البيت فله رب يحميه .

هذا غاية ما ينتهى إليه الاستسلام — وعبد المطلب في مكانه من الرياسة على قریش — فأين من تلك المكانة محمد (ص) في حاله من الفقر ، ومقامه في الوسط من طبقات أهله ، حتى ينتجع ملكاً أو يطلب سلطاناً ؟ لا مال لا جاه ، لا جند لا أعوان ، لا سليقة في الشعر ، لا براعة في الكتاب ، لا شهرة في الخطاب ، لا شيء كان عنده مما يكسب المكانة في نفوس العامة أو يرقى به إلى مقام ما بين الخاصة .

ما هذا الذي رفع نفسه فوق النفوس ؟ ما الذي أعل رأسه على

١٤٠ أصول الدعوة المحمدية في إصلاح الأمم والملل

الراءوس ، ما الذى سما بهمته على الهمم . حتى انتدب لإرشاد الأمم وكفالتهم لهم كشف الغمم . بل وإحياء الرمم ؟

ما كان ذلك إلا ما ألقى الله فى روعه من حاجة العالم إلى مقوم لما زاغ من عقائدهم ، ومصلح لما فسد من أخلاقهم وعوائدهم ، ما كان ذلك إلا وجدانه ربح العناية الإلهية تنصره فى عمله ، وتمده فى الانتهاء إلى أمله . قبل بلوغ أجله . ما هو إلا الوحي الإلهى يسعى نوره بين يديده يضىء له السبيل ، ويكفيه مؤنة الدليل ، ما هو إلا الوحي السماوى ، قام لديه مقام القائد والجندى ، أرأيت كيف نهض وحيداً فريداً يدعو الناس كافة إلى التوحيد ، والاعتقاد بالعلى المجيد . والكل مابين وثنية مفرقة ، ودهرية وزندقة ؟

نادى فى الوثنيين بترك أوثانهم ونبد معبوداتهم - وفى المشبهين المنغمسين فى الخلط بين اللاهوت الأقدس وبين الجسمانيات بالتطهر من تشبههم - وفى التانوية بإفراد إله واحد بالتصرف فى الأكوان ورد كل شيء فى الوجود إليه - أهاب بالطبيعيين ليمدوا بصائرهم إلى ما وراء حجاب الطبيعة ، فيتنبؤوا سر الوجود الذى قامت به . صاح بذوى الزعامة ليهبطوا إلى فصاف العامة ، فى الاستسكانة إلى سلطان معبود واحد ، هو فاطر السموات والأرض ، والقباض على أرواحهم فى هياكل أجسادهم .

أصول الدعوة المحمدية في إصلاح الأمم والملل ١٤١

تناول المنتحلين منهم لمرتبة التوسط بين العباد وبين ربهم الأعلى ، خبين لهم بالدليل ، وكشف لهم بنور الوحي أن نسبة أكبرهم إلى الله كنسبة أصغر المعتقدين بهم ، وطالبهم بالنزول عما انتحلوه لأنفسهم من المكانات الربانية ، إلى أدنى سلم من العبودية ، والاشتراك مع كل ذى نفس إنسانية ، في الاستعانة برب واحد يستوى جميع الخلق في النسبة إليه ، لا يتفاوتون إلا فيما فضل به بعضهم على بعض من علم أو فضيلة .

وخز بوعظه عبيد العادات وأسراء التقاليد ، ليعتقوا أرواحهم بما استعبدوا له ، ويحلوا أغلالهم التي أخذت بأيديهم عن العمل . واقتطعتهم دون الأمل - مال على قراء الكتب السماوية ، والقائمين على ما أودعته من الشرائع الإلهية ، فبكت الواقفين عند حروفها بغباوتهم ، وشدت النكير على المجرفين لها ، الصارفين لألفاظها إلى غير ما قصد من وحيها ، اتباعاً لشهواتهم ؛ ودعاهم إلى فهمها ، والتحقق بسر علمها ؛ حتى يكونوا على نور من ربهم .

ولفت كل إنسان إلى ما أودع فيه من المواهب الإلهية ، ودعا الناس أجمعين ذكوراً وإناثاً عامة وسادات إلى عرفان أنفسهم ، وأنهم من نوع خصه الله بالعقل ، وميزه بالفكر ، وشرفه بهما ، وبجربة الإرادة فيما يرشده إليه عقله وفكره ، وأن الله عرض

عليهم جميع ما بين أيديهم من الأكوان وسلطهم على فهمها والانتفاع بها ، بدون شرط ولا قيد إلا الاعتدال والوقوف عند حدود الشريعة العادلة ، والفضيلة الكاملة . وأقدرهم بذلك على أن يصلوا إلى معرفة خالقهم بعقولهم وأفكارهم بدون واسطة أحد ، إلا من خصهم الله بوحيه ، وقد وكل إليهم معرفتهم بالدليل . كما كان الشأن في معرفتهم لمبدع الكائنات أجمع . والحاجة إلى أولئك المصطفين إنما هي في معرفة الصفات التي أذن الله أن تعلم منه ، وليست في الاعتقاد بوجوده . وقرر أن لاسلطان لأحد من البشر على آخر منه ، إلا مارسته الشريعة وفرضه العدل . ثم الإنسان بعد ذلك يذهب بإرادته إلى ما سخرت له بمقتضى الفطرة .

دعا الإنسان إلى معرفة أنه جسم وروح ، وأنه بذلك من عالمين متخالفين ، وإن كانا بمنزجين ، وأنه مطالب بخدمتهما جميعاً وإيفاء كل منهما ما قررت له الحكمة الإلهية من الحق .

دعا الناس كافة إلى الاستعداد في هذه الحياة لما سيلاقون في الحياة الآخرة ؛ وبين لهم أن خير زاد يتزوده العامل هو الإخلاص لله في العبادة والاختلاص للعباد في العدل والنصيحة والإرشاد .

قام بهذه الدعوة العظمى وحده ، ولا حول له ولا قوة ؛ كل هذا كان منه والناس أحياء ما ألفوا ؛ وإن كان خسران الدنيا وحرمان

قيامه صلى الله عليه وسلم بأعباء الرسالة وحده . ١٤٣

الآخرة ، أعداء ما جهلوا ، وإن كان رغد العيش وعزة السيادة ومتهى السعادة ، كل هذا والقوم حو اليه أعداء أنفسهم ، وعبيد شهواتهم ، لا يفقهون دعوته ، ولا يعقلون رسالته ، عقدت أهداب بصائر العامة منهم باهواء الخاصة ، وحجبت عقول الخاصة بغرور العزة عن النظر فى دعوى فقير أى مثله ، لا يرون فيه ما يرفعه إلى نصيحتهم . والتطاول إلى مقاماتهم الرفيعة باللوم والتعنيف .

لكنه فى فقره وضعفه كان يقارعهم بالحجة ؛ ويناضلهم بالدليل ويأخذهم بالنصيحة ؛ ويزعجهم بالزجر ؛ وينبهمم للعب ، ويحوطهم مع ذلك بالموعظة الحسنة ؛ كأنما هو سلطان قاهر فى حكمه عادل فى أمره ونهيه ، أو أب حكيم فى تربية أبنائه ، شديد الحرص على مصالحهم ؛ رءوف بهم فى شدته رحيم فى سلطته .

ماهذه القوة فى ذلك الضعف ؟ ماهذا السلطان فى مظنة العجز ؛ ماهذا العلم فى تلك الأمية ؟ ماهذا الرشاد فى غمرات الجاهلية ؛ إن هو إلا خطاب الله القادر على كل شىء ، الذى وسع كل شىء رحمة وعلماً ذلك أمر الله الصادع ؛ يقرع الآذان ؛ ويشق الحجب ؛ ويمزق الغلف ، وينفذ إلى القلوب على لسان من اختاره لينطق به ؛ واختصه بذلك وهو أضعف قومه ؛ ليقم من هذا الاختصاص برهاناً عليه بعيداً عن الظنة ؛ بريئاً من التهمة ؛ لإتيانه على غير المعتاد بين خلقه .

أبى برهان على النبوة أعظم من هذا؟ أى قام يدعو الكتّابين إلى فهم ما يكتبون وما يقرءون ، بعيد عن مدارس العلم صاح بالعلماء ليمحصوا ما كانوا يحلمون ، فى ناحية عن يتابع العرفان جاء يرشد العرفاء ، ناشئ بين الواهمين هب لتقويم عوج الحكماء ، غريب فى أقرب الشعوب إلى سذاجة الطبيعة ، وأبعدها عن فهم نظام الخليقة ، والنظر فى سننه البديعة ، أخذ يقرر للعالم أجمع أصول الشريعة ، ويخط للسعادة طرقاً لن يهلك سالكها ، ولن يخلص تاركها .

ما هذا الخطاب المفحم؟ ما ذلك الدليل الملمج؟ أقول ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم؟ لا . لا أقول ذلك ، ولكن أقول كما أمره الله أن يصف نفسه : إن هو إلا بشر مثلكم يوحى إليه ، نبى صدق الأنبياء ، ولكن لم يأت فى الإقناع برسالته بما يلهمى الأبصار ، أو يحير الحواس ، أو يدهش المشاعر . ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما أعدت له واختص العقل بالخطاب ، وحاكم إليه الخطأ والصواب ، وجعل فى قوة الكلام وسلطان البلاغة وصحة الدليل مبلغ الحجة . وآية الحق الذى (لا يأتىه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)

القرآن

جاءنا الخبر المتواتر الذى لا تطرق إليه الريية أن النبي (ص) كان فى نشأته وأميته على الحال التى ذكرنا ، وتواترت أخبار الأمم كافة على أنه جاء بكتاب قال : إنه أنزل عليه ، وأن ذلك الكتاب هو القرآن المكتوب فى المصاحف المحفوظ فى صدور من عني بحفظه من المسلمين إلى اليوم .

كتاب حوى من أخبار الأمم الماضية ما فيه معتبر للأجيال الحاضرة والمستقبل : نقب على الصحيح منها ، وغادر الأباطيل التى ألحقها الأوهام بها ، ونبه على وجوه العبرة فيها .

حكى عن الأنبياء ما شاء الله أن يقص علينا من سيرهم ، وما كان بينهم وبين أممهم ، وبرأهم بما رماهم به أهل دينهم المعتقدين برسالاتهم .

أخذ العلماء من الملل المختلفة على ما أفسدوا عن عقائدهم ؛ وما خلطوا فى أحكامهم ، وما حرفوا بالتأويل فى كتبهم - وشرع للناس أحكاما تنطبق على مصالحهم ، وظهرت الفائدة فى العمل بها والمحافظة عليها ، وقام بها العدل وانتظم بها شمل الجماعة ما كانت عند حد ماقرره ثم عظمتم المضرة فى إهمالها والانحراف عنها ، أو البعد بها عن الروح (٢ - ١٠ رسالة توحيد)

الذي أودعته . ففاقت بذلك جميع الشرائع الوضعية ، كما يتبين للناظر في شرائع الأمم .

ثم جاء بعد ذلك (١) بحكم ومواعظ وآداب ، تخشع لها القلوب وتهش لاستقبالها العقول ، وتنصرف وراءها الهمم انصرافها في السبيل الأمم (٢) .

نزل القرآن في عصر اتفق الرواة وتواترت الأخبار على أنه أرقى الأعصار عند العرب . وأغزرها مادة في الفصاحة ، وأنه الممتاز بين جميع ما تقدمه بوفرة رجال البلاغة ، وفرسان الخطاب ، وأنفس ما كانت العرب تتنافس فيه من ثمار العقل وتناجج الذنطنة والذكاء : هو الغلب في القول ، والسبق إلى إصابة مكان الوجدان من القلوب ، ومقر الإذعان من العقول ، وتقانيهم في المفاخرة بذلك ، مما لا يحتاج إلى الإطالة في بيانه .

تواتر الخبر كذلك بما كان منهم من الحرص على معارضة النبي صلى الله عليه وسلم ، والتماسهم الوسائل قريها وبعيدها لإبطال دعواه ، وتكذيبه في الإخبار عن الله ، وإتيانهم في ذلك على مبلغ

(١) هذه البعدية نوعية لا زمانية أو هي كما قال الشاعر :

قل لمن مات ثم مات أبوه ثم من بعد ذاك قد مات جده

(٢) الأمم بفتح الهمزة والميم الأولى : القريب

تحدى العرب بالقرآن وعجزهم عن معارضته ١٤٧

استطاعته، وكان فيهم الملوك الذين تحملهم عزة الملك على معاندته، والأمراء الذين يدعومهم السلطان إلى مناوآته، والخطباء والشعراء والكتاب الذين يشمخون بأنوفهم عن متابعتهم، وقد اشتد جميع أولئك في مقاومته، وانهالوا بهواهم عليه استكباراً عن الخضوع له، وتمسكوا بما كانوا عليه من أديان آبائهم، وحمية لعقائدهم وعقائدهم أسلافهم، وهو مع ذلك يخطئ آراءهم، ويسفه أحلامهم، ويحتقر أصنامهم، ويدعومهم إلى ما لا تعهده أيامهم ولم تحقق لمثله أعلامهم، ولا حجة له بين يدي ذلك كله إلا تحديهم بالإتيان بمثل أقصر سورة من ذلك الكتاب أو بعشر سور من مثله^(١)، وكان في استطاعتهم أن يجمعوا إليه من العلماء والفصحاء والبلغاء ماشاءوا ليأتوا بشيء من مثل ما أتى به ايسطلوا الحجة، ويفحموا صاحب الدعوة.

جاءنا الخبر المتواتر أنه مع طول زمن التحدى، ولحاج القوم في النعدي، أصيبوا بالعجز، ورجعوا بالخسبة، وحقت للكتاب العزيز الكلمة العليا على كل كلام، وقضى حكمه العلي على جميع الأحكام. أليس في ظهور مثل هذا الكتاب على لسان أمي أعظم معجزة؛

(١) كان التحدى بعشر سور مثله رداً على الذين قالوا « افترأه » ولذلك وصفها بقوله (مفريات) وقد بينت حكمة هذا العدد في تفسير الآية من سورة هود.

وأدل برهان على أنه ليس من صنع البشر ، وإنما هو النور المنبعث عن شمس العلم الإلهي . والحكم الصادر عن المقام الرباني على لسان الرسول الأبي صلوات الله عليه ؟

هذا ، وقد جاء في الكتاب من أخبار الغيب ما صدقته حوادث الكون ، كالخبر في قوله (٣٠ : ٢) غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين) وكالوعد الصريح في قوله (٢٤ : ٥٥) وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم) الآية . وقد تحقق جميع ذلك ، وفي القرآن كثير من مثل هذا يحيط به من يتلوه حق تلاوته .

ومن الكلام على الغيب فيه : ما جاء في تحدى العرب به ، واكتفائه في الرجوع عن دعواه بأن يأتوا بسورة من مثله ؛ مع سعة البلاد العربية ووفرة سكانها وتباعد أطرافها ؛ وانتشار دعوته على لسان الوافدين إلى مكة من جميع أرجائها ، ومع أنه لم يسبق له صلى الله عليه وسلم السياحة في نواحيها والتعرف برجالها وقصور العلم البشري عادة عن الإحاطة بما أودع في قوى أمة عظيمة ؛ كالامة العربية ؛ فهذا القضاء الحاتم منه بأنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بشيء من مثل ما تحداهم به ليس قضاء بشريا ، ومن الصعب ؛ بل من المتعذر أن يصدر عن عاقل التزام كالذي التزمه ؛

وشرط كالذى شرطه على نفسه : لغلبة الظن عند من له شيء.
من العتق أن الأرض لا تخلو من صاحب قوة مثل قوته (١) وإنما

(١) يشير إلى قوله تعالى (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا
فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ه
فإن لم تفعلوا — وإن تفعلوا — فاتقوا النار) الخ . فالإخبار بالغيب
فيه قوله — « ولن تفعلوا » وكان هذا بعد التصريح بعجز الإنس
والجن عن الإنيان بمثله

فد يقال : إن بعض دعاة الضلال فى بلاد الفرس والهند قد تحدوا
مثل هذا التحدى فى بعض ما كتبوه لإثبات ما ادعوه من الوحي إليهم
أو الألوهية لأنفسهم ، ولم نعلم أن أحداً تصدى لمعارضتهم . ونقول فى
الجواب على تقدير تسليم الدعوى : إن أولئك لم يكونوا أولى شأن
ببالي بدعوتهم وتحديهم ، بل من الموسوسين (كالباب والقدياني مسيح
الهند الدجال) وكان جل ما جاءوا به من ذلك أشبه باللغو منه بكلام
العقلاء أو النبيين ، وما كان لعاقل أن يعارض المجانين ، ولا لبليغ
أن يحاكي هذيان المحومين والمصروعين ، ولا يزال يظهر أمثالهم فى
تلك البلاد وغيرها ، ولا ببالي بهم أحد ، ولكن رزق بعضهم الخطوة
فى بلاد أعجمية ؟ أتوا فيها بسخافات جنوا بها على العربية ، وما ادعاه
بعضهم من إعجاز بعض ما كتبه فهو ليس كتحدى الأنبياء ، بل كبالغة
بعض الأدباء والشعراء ، كالشيخ أحمد فارس الذى قال فى مقدمة
كتابه « الساق على الساق » غلوا فى الفخر به

١٥٠ عجز العرب عن معارضة القرآن يقتضى عجز الأعاجم بالأولى

ذلك هو الله المتكلم ، والعلم الخبير هو الناطق على لسانه ، وقد أحاط علمه بقصور جميع القوى عن تناول ما استهضمهم له ، وبلوغ ما حشهم عليه .

= عهد إلى ولدى أن يتحديا أسلوبه وبدقته يظيفا على أنه يوجد أمثال تلك الكتب السخيفة ، ولهذا الكتب اللطيفة ولو قيل لهم أو لبعض أشياهم : إنها مثلها أو أمثل منها في بابها لأنكروا ومن ذا الذى يبالي بهم ويأقناعهم ، وليس شأن القرآن مع العرب ، ثم مع سائر الأمم كذلك ، وإعجازه من وجوه كثيرة فى نفسه ، وفى كون من جاء به أمياً بلغ الأربعين ، ومن المحال أن يتذكر أحد من البشر فى هذه السن علماً لم يستعد له ، ولم يزاوله . وكل من ذكرنا كانوا متعلمين وهو (ص) قد جاء بأقصى الغايات من أعلى العلوم ، لم يسبق له اكتساب شئ . ما من الاستعداد له لا علوم العقائد ولا الشرائع ولا الحكمة العملية ولا العلمية ، ولا التاريخ وفلسفته ... ولا كان ممتازاً قبله بالبلاغة فى الشعر والخطابة ، ولا الجدل ، ثم جاء هذا الكتاب بالغاية القصوى فى هذه العلوم ، وتلك معجزات كثيرة غير معجزة بلاغته وأسلوبه البديع وغير ما فيه من أنباء الغيب ، وكانت الدواعى لمعارضته قوية ، فإنه زلزل سلطانهم الدينى والدنيوى ، حتى قوضه من أساسه ، ولم يكن لهؤلاء الأدعياء المتأخرين مثل هذا السلطان والتأثير العظيم ، على أن أدهام فى النهاية — وهم البهائية — يخفون كتابهم الذى سموه الأقدس بدلا من التحدى به ، ولو أظهروه لأقتضحوا به .

يقول وأهم : إن العجز حجة على من عجز . فإن العجز هو حجة الإلزام والإلزام الخصم : وعند يلتزم الخصم بعض المسلمين عنده فيفهم : ويعجز عن الجواب فتلزمه الحجة : لكن ليس ذلك بملزم لغيره : فمن الممكن أن لا يسلم غيره بما سلبه ، فلا يفحمه الدليل : بل يحد إلى إبطاله أقرب سبيل .

وهو وهم يضمحل بما قدمناه من البيان : إذ لا يوجد من المشابهة بين إعجاز القرآن وإلزام الدليل إلا أنه يوجد عن كل منهما عجز : وشتان بين العجزين : وبعد ما بين وجهي الاستدلال فيهما : فإن إعجاز القرآن برهن على أمر واقعي : وهو تقاصر القوى البشرية دون مكانته من البلاغة : وقلنا : والقوى البشرية ، لأنه جاء بلسان عربي : وقد عرف الكتاب عند جميع العرب في عهد النبوة : وكان حال العصر من البلاغة كما ذكرنا ، وحال القوم في العناد كما بينا ، ومع ذلك لم يمكن للعرب أن يعارضوه بشيء من مبلغ عقولهم . فلا يعقل أن فارسيا أو هنديا أو رومانيا يبلغ من قوة البلاغة في العربية أن يأتي بما عجز عنه العرب أنفسهم ، وتقاصر القوى جميعها عن ذلك ، مع التماثل بين النبي وبينهم في النشأة والتربية ، وامتياز الكثير منهم بالعلم والدراسة : دليل قاطع على أن الكلام لبس بما اعتيد صدوره عن البشر فهو اختصاص من الله سبحانه لمن جاء على لسانه ، ثم ما ورد في القرآن من تسجيل العجز عنهم ،

والتعرض للاصطدام بجميع ما أوتوا من قوة ، بما يدل على الثقة من أمره ، على ماسبق تعداده من الأمور التي لا يمكن معها لعقل ان يقف ذلك الموقف مع طول الزمن . وانفساح الأجل ، كل ذلك يدل على أن الناطق هو عالم الغيب والشهادة ، لا رجل يعظ وينصح على العادة .

فثبت بهذه المعجزة العظمى ، وقام الدليل بهذا الكتاب الباقي الذي لا يعرض عليه التخيير ، ولا يتناوله التبديل . أن نبينا محمداً (ص) رسول الله إلى خلقه ، فيجب التصديق برسالته ، والاعتقاد بجميع ما ورد في الكتاب المنزل عليه ، والأخذ بكل ما ثبت عنه من هدى وسنة متبعة . وقد جاء في الكتاب أنه خاتم الأنبياء . فوجب علينا الإيمان بذلك كذلك .

بقى علينا أن نشير إلى وظيفة الدين الإسلامي ، وما دعا إليه على وجه الإجمال ، وكيف انتشرت دعوته بالسرعة المعروفة . والسري كون النبي (ص) حاتم المرسلين ، صلوات الله عليه وعليهم أجمعين .

الدين الإسلامى أو الإسلام

هو الدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وعقله من وعاه عنه من صحابته ومن عاصرهم . وجرى العمل عليه حيناً من الزمن بينهم ، بلا خلاف ولا اعتساف فى التأويل ولا ميل مع الشيع ، وإنى بجملة فى هذا الباب مقتدياً بالكتاب المجيد فى التفويض لذوى البصائر أن يفصلوه ، وما سन्दى فيما أقول : إلا الكتاب والسنة القويمة وهدى الراشدين .

جاء الدين الإسلامى بتوحيد الله تعالى فى ذاته وأفعاله وتزيهه عن مشابهة المخلوقين ، فأقام الأدلة على أن للكون خالقاً واحداً متصفاً بما دلت عليه آثار صنعه من الصفات العلية ، كالعلم والقدرة والإرادة وغيرها ، وعلى أنه لا يشبهه شيء من خلقه ، وأن لانسبة بينه وبينهم إلا أنه موجودهم ، وأنهم له وإليه راجعون (١١٢ : ١ قل هو الله أحد ٢ الله الصمد ٣ لم يلد ولم يولد ٤ ولم يكن له كفواً أحد) وما ورد من ألفاظ الوجه واليدين والاستواء ونحوها له معان عرفها العرب المخاطبون بالكتاب ، ولم يشتهوها فى شيء منها وأن ذاته وصفاته يستحيل عليها أن تبرز فى جسد أو روح أحد من العالمين ، وإنما يختص سبحانه من شاء من عباده (١) بما شاء من

١٥٤ الأنبياء وخصائصهم ، شكر المنعم وكسب العبد وسلطان الرب

علم وسلطان على ما يريد أن يسلطه عليه من الأعمال ، على سنة له في ذلك منها في علمه الأزلي ، الذي لا يعتريه التبدل ، ولا يدنو منه التغيير ، وحظر على كل ذى عقل أن يعترف لأحد بشيء من ذلك إلا ببرهان ينتهى فى مقدماته إلى حكم الحس وما جاوره من البديهيات التى لا تنقص عنه فى الوضوح ، بل قد تلوه ، كاستحالة الجمع بين النقيضين أو ارتقاعهما معا ، أو وجوب أن الكل أعظم من الجزء مثلا . وقضى على هؤلاء كغيرهم بأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، وغاية أمرهم : أنهم عباد مكرمون (١) وأن ما يجريه على أيديهم فإنما هو بإذن خاص وتيسير خاص فى موضع خاص لحكمة خاصة ولا يعرف شأن الله فى شيء من هذا إلا كما ببرهان تقدم .

دل هذا الدين بمثل قول الكتاب : (١٦ : ٧٨) والله أخرجه من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون (٢) والشكر عند العرب معروف أنه

(١) إشارة إلى قوله تعالى (٢١ : ٢٦) وقالوا : اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون (٢) قال المؤلف فى الدرر ، لعل ، فى القرآن تعبر دائما عن الاستعداد ، أى جعل لكم هذه الآلات ليعدكم بها للشكر ، أو قال : ليعدكم بشكرها لتحصيل جميع العلوم بها أى وهذا ما خلقت لأجله ، بقرينة لا تعلمون شيئا ، قال « والأفئدة ، العقول أين كان محلها ، سواء أكان الدماغ أو القلب

ستنبال الاسلام للوثنية وتطهيره الانفس من اوهامها ١٥٥

تصريف النعمة فيما كان الانعام بها لأجله - دل بمثل هذا على أن الله وهبنا من الخواس وغرز فينا من القوى مانصره في وجوهه بمحض تلك الموهبة . فكل شخص كاسب لعمله بنفسه لها أو عاها . وأما ما تحجير فيه مداركنا وتقصر دونه قوانا ، وتشعر فيه أنفسنا بسلطان يقهرها . أو ناصر يدها فيما أدرکها العجز عنه على أنه فوق ما تعرفه من القوى المستخرة لها ، وكان لابد من الخضوع له والرجوع إليه والاستعانة به - فذلك (١) إنما يرد إلى الله وحده . فلا يجوز أن نخشع إلا له ، ولا تطمئن إلا إليه . وكذلك جعل ثأبها فيما تخافه وترجوه مما تقبل عليه في الحياة الآخرة ، لا يسوغ لها أن تلجأ إلى أحد غير الله في قبول أعمالها من الطيبات ، ولا في غفران أفاعيلها من السيئات ، فهو وحده مالك يوم الدين .

اجتثت بذلك جذور الوثنية ، وما واهموا باختلاف عنها في الصورة والشكل ، أو العبارة واللفظ ، لم يختلف عنها في المعنى والحقيقة تبع هذا طهارة العقول من الاوهام الفاسدة التي لا تنفك عن

(١) قوله : فذلك الخ الجملة : خبر قوله ، وأما ما تحجير الخ وحاصل المعنى أن الشعور بوجود قوة غيبية في الكون هو مما أودع في غرائز البشر ولكن هذه القوة هي لله وحده . فلا يجوز أن يتوجه أحد إلى غيره فيما هو غير معتمد من الأسباب المشتركة بين البشر ، ولو كان نبياً أو ولياً .

تلك العقيدة الباطلة ؛ ثم تنزه النفوس عن الملكات السيئة التي كانت تلازم تلك الأوهام ، وتخلصت بتلك الطهارة من الاختلاف في المعبودين وعليهم (١) . وارتفع شأن الإنسان ، وسمت قيمته بما صار إليه من الكرامة ، بحيث أصبح لا يخضع لأحد إلا الخالق السموات والأرض . وقاهر الناس أجمعين . وأبيح (٢) لكل أحد . بل فرض عليه أن يقول كما قال إبراهيم (٦ : ٧٠) إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين (٣) . وكما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول : (٦ : ١٦٢) إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي (٤) لله رب العالمين (١٦٣) لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) .

تجلت بذلك للإنسان نفسه حركة كريمة ، وأطلقت إرادته من

(١) ذكر المؤلف في الدرس هنا مغاند المنتسبين إلى طرق الصوفية واختلافهم ، فليذكر من يعلم (٢) عبر بأبيح للإشارة إلى أن ذلك كان محظوراً عند الأمم السابقة ، فلم يكن يباح لأحد أن يتوجه إلى الله بدون واسطة الرئيس الديني فيكونوا حنفاء ، والحنيف المائل عن الباطل إلى الحق الملتزم له ، فن يتوجه إلى غير الله ليقربه إلى الله ، فليس بحنيف . (٣) أي إن صلاتي وجميع عبادتي وحياتي وشؤوني ومماتي وما بعده كل ذلك لله وحده لا أتوجه فيه إلى مرضاة غيره ، ولا أستعين أحداً على شيء منه استعانة معنوية بل إياه وحده أستعين ، مهتدياً بما شرعه من الدين .

١ عتاق التوحيد لنفس الإنسان من العبودية والذل لغير الله وللماله ١٥٧

القيود التي كانت تعقدها بإرادة غيره ؛ سواء كانت إرادة بشرية (١) ظن أنها شعبة من الإرادة الإلهية - أو أنها هي - كإرادة الرؤساء والمسيطرين ، أو إرادة موهومة اخترعها الخيال كما يظن في القبور والأحباب والأشجار والكواكب ونحوها . وافسكت عزيمته من أسر الوسائط والشفعاء ، والمتكهنات والعرفاء ، وزعماء السيطرة على الأسرار ومنتحلي حق الولاية على أعمال العبد فيما بينه وبين الله . الزاعمين أنهم واسطة النجاة ، وبأيديهم الأشقاء والاسعاد . وبالجملة فقد أعتقت روحه من العبودية للمحتالين والدجالين .

صار الإنسان بالتوحيد عبداً لله خاصة ، حرّاً من العبودية لكل ما سواه فكان له من الحق ما للحر على الحر . لا على في الحق والوضع ولا سافل ولا رفيع . ولا تفاوت بين الناس إلا بتفاوت أعمالهم ، ولا تفاضل إلا بتفاضلهم في عقولهم ومعارفهم ، ولا يقرهم من الله إلا طهارة العقل من دنس الوهم ، وخلوص العمل من التوج والرياء ، ثم بهذا خلصت أموال الكاسبين ، وتمحض الحق فيها للفقراء والمساكين والمصالح العامة . وكفت عنها أيدي العالة وأهل البطالة ، ممن كان يزعم الحق فيها بصفته ورتبته ، لا بعمله وخدمته

(١) قال المؤلف : كإرادة القديسين والكهنة الذين يأتي ذكرهم مرتباً

طالب الإسلام بالعمل كل قادر عليه . وقرر أن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت (٩٩ : ٧ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره (٨) ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) (٥٣ : ٣٩ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) وأباح لكل أحد أن يتناول من الطيبات ما شا . أكلاً وشرباً ولباساً وزينة ، ولم يحظر عليه إلا ما كان ضاراً بنفسه أو بمن يدخل في ولايته ، أو ما يعدى ضرره إلى غيره ، وحدد له في ذلك الحدود العامة بما ينطبق على مصالح البشر كافة ، فكفل الاستقلال لكل شخص في عمله ، واتسع المجال لتسابق الحمم في السعى حتى لم يعد لها عقبة تتعثر بها . اللهم إلا حقاً محترماً تضلّم به .

أنهى الإسلام على التقليد . وحمل عليه حملة لم يردها عنه القدر . بيددت فيآلقه المتغلبة على النفوس . واقتلعت أصوله الراسخة في المدارك . ونسفت ما كان له من دعائم وأركان في عقائد الأمم (١)

(١) ذكر المؤلف منها في الدرس ثلاثاً : ١ - احترام المرء لآبائه ومربيه ٢ - اعتقاد عظمة سلفه من رجال الدين ٣ - الحذر من إنكار الناس المحتفين به واعتراضهم عليه إذا حاول أن يخرج عما هم عليه ، أي فن لم يحترم نفسه ، واستقلال فكره ، ويمرن نفسه على الأخذ بما يعتقد أنه الحق ، وإن خالف الآباء والمعلمين والأحياء والأموات غير المعصومين من الخطأ ، فلا يمكنه أن ينطلق من قيود التقليد ، وسيأتي في كلامه ما يهدم تلك القواعد والأركان .

إيقاظ الإسلام للعقل وإزعاجه للاستقلال في العلم ١٥٩

صاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته ، وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها ، كلما نفذ إليه شعاع من نور الحق . خلصت إليه هنيئة من سدة هياكل الوهم « نيم . فإن الليل حالك ، والطريق وعرة ، والغاية بعيدة ، والراحلة كليلة ، والأزواد قليلة ،

علا صوت الإسلام على وساوس الطغام ، وجهر بأن الإنسان لم يخلق لقياد بالزمام ، ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم والأعلام - أعلام الكون ودلائل الحوادث - وإنما المعلنون منبهون ومرشدون وإلى طريق البحث هادون .

صرح في وصف أهل الحق بأنهم (٣٩ : ١٨) الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) فوصفهم بالتمييز بين ما يقال ، من غير فرق بين القائلين .، ليأخذوا بما عرفوا حسنه ، ويطرحوا ما لم يتبينوا صحته ونفعه ومال على الرؤساء فأنزلهم من مستوى كانوا فيه يأمررون وينهون ، ووضعهم تحت أنظار مرؤسيهم يخبرونهم كما يشاءون ، ويمتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون ، ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون لا بما يظنون ويتوهمون

صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء ، وما توارثه عنهم الأبناء ، وسجل الحق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين ،

١٦٠ المتأخر أجدر بالعلم من المتقدم . سلطان العقل المطلق

ونبه على أن السبق في الزمان ليس آية من آيات العرفان ، ولا مسميا لعقول على عقول ولأذهان على أذهان ، وإنما السابق واللاحق في التمييز والفطرة ميان ، بل للاحق من علم الأحوال الماضية ، واستعداده للنظر فيها والانفاج بما وصل إليه من آثارها في السكون ، ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه . وقد يكون من تلك الآثار التي ينتفع بها أهل الجيل الحاضر ظهور العواقب السيئة لأعمال من سبقهم ، وطغيان الشر الذي وصل إليهم بما اقترفه سلفهم (٦ : ١١ قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين) وان أبواب فضل الله لم تغلق دون طالب ورحمته التي وسعت كل شيء ان تضيق عن دائب .

عاب أرباب الأديان في اقتفاتهم اثر آباءهم ، ووقوفهم عند ما اختلطت لهم سير أسلافهم ، وقولهم (٢١ : ٢١ بل تتبع ما وجدنا عليه آباءنا (٤٣ : ٢٢ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون) .

فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ما كان قيده ، وخلصه من كل تقليد كان استعبده ، وردده إلى ملكته . يقضى فيها بحكمه وحكمته مع الخضوع في ذلك لله . وحده والوقوف عند شريعته . ولا حد للعمل في منطقة حدودها ، ولا نهاية للنظر بمتد تحت بنودها .

إكمال الإسلام لإنسانية البشر باستقلال الإرادة والفكر ١٦١

بهذا وما سبقه تم للإنسان بمقتضى دينه أمران عظيمان ، طالما حرم منهما ، وهما استقلال الإرادة واستقلال الرأى والفكر ، وبهما كملت له إنسانيته ، واستعد لأن يبلغ من السعادة ما يهياه الله . بهما يحكم الفطرة التى فطر عليها . وقد قال بعض حكماء الغربيين من متأخريهم : إن نشأة المدنية فى أوروبا إنما قامت على هذين الأصلين فلم تهض النفوس للعمل ، ولم تتحرك العقول للبحث والنظر ، إلا بعد أن عرف العدد الكثير أنفسهم ، وأن لهم حقا فى تصريف اختيارهم وفى طلب الحقائق بعقولهم ، ولم يصل إليهم هذا النوع من العرفان إلا فى الجيل السادس عشر من ميلاد المسيح . وقرر ذلك الحكيم أنه شعاع سطع عليهم من آداب الإسلام ، ومعارف المحققين من أهله فى تلك الأزمان .

رفع الإسلام بكتابه المنزل ما كان قد وضعه رؤساء الأديان من الحجر على عقول المتدينين فى فهم الكتب السماوية ، استثناء من أولئك الرؤساء بحق الفهم لأنفسهم ، وضنا به على كل من لم يلبس لباسهم ، ولم يسلك مسلكهم ، لنيل تلك الرتب المقدسة . فعرضوا على العامة أو أباحوا لهم أن يقرأوا قطعا من تلك الكتب ، لكن على شريطة أن لا يفهموها ، وأن لا يطيروا أنظارهم إلى ماترى إليه .

(١١ م — رسالة التوحيد)

ثم غالوا في ذلك فحرموا أنفسهم أيضاً مزية الفهم إلا قليلاً ، ورموا عقولهم بالقصور عن إدراك ما جاء في الشرائع والنبوات ، ووقفوا كما وقفوا بالناس عند تلاوة الألفاظ نعبداً بالأصوات والحروف " فذهبوا بحكمة الإرسال ، فجاء القرآن يلبسهم عار ما فعلوا فقال (٢ : ٧٨) ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون) (٦٢ : ٥ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً ، بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله . والله لا يهدي القوم الظالمين) .

أما الأماني ، ففسرت بالقراءات والتلاوات أي لا يعلمون منه إلا أن يتلوه ، وإذا ظنوا أنهم على شيء مما دعا إليه فهو عن غير علم بما أودعه ، وبلا برهان على ما تخيلوه عقيدة وظنوه ديناً . وإذا عن لاحد هم أن يبين شيئاً من أحكامه ومقاصده لشهوة دفعته إلى ذلك جاء فيما يقول بما ليس منه على يئنه ، واعتسف في التأويل

(١) أي ووقفوا بأنفسهم كما وقفوا بالناس المقلدين لهم عند ألفاظ الكتاب دون معانيه ومقاصده ، وكذلك فعل الذين اتبعوا سنتهم من المسلمين مصداقاً لما أنبأ به الرسول ﷺ . وأما تعبدنا بالقرآن فهو لأجل تدبره والاهتمام به ، ثم لأجل حفظه وتبليغه . فهما مقصدان .

التفقه في الدين واجب على جميع المكلفين في كل زمان ١٦٣

وقال هذا من عند الله (٢ : ٧٩) فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً (واما الذين قال: إنهم لم يحملوا التوراة وهي بين أيديهم بعدما حملوها^(١)، فهم الذين لم يعرفوا منها إلا الألفاظ، ولم تسم عقولهم إلى درك ما أودعته من الشرائع والأحكام، فعميت عليهم بذلك طرق الاهتداء بها، وطمست عن أعينهم أعلام الهداية التي نصبت بإزالتها، فحق عليهم ذلك المثل الذي أظهر شأنهم فيما لا يليق بنفس بشرية أن تظهر به: مثل الخمار الذي يحمل الكتب ولا يستفيد من حملها إلا العناء والتعب. وقصم الظهر وانهار النفس وما أشنع شأن قوم انقلبت بهم الحال، فما كان سبباً في إسعادهم، وهو التنزيل والشرعية، أصبح سبباً في شقاوتهم بالجهل والغباوة.

وبهذا التقرير ونحوه، وبال دعوة العامة إلى الفهم، وتمحيص الأبواب للتفقه واليقين - مما هو منتشر في القرآن العزيز - فرض الإسلام على كل ذي دين أن يأخذ بحظه من علم ما أودع الله في كتبه وما قرر من شرعه، وجعل الناس في ذلك سواء بعد استيفاء الشرط بإعداد ما لا بد منه للفهم، وهو سهل المنال على الجمهور

(١) حملوها بضم الحاء وتشديد الميم: كلفوا حملها وذلك قوله تعالى لموسى كما حكاه في القرآن (نخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها)

الاعظم من المتدينين ، لا تخص به طبقة من الطبقات ، ولا يحتكر مزيته وقت من الأوقات .

جاء الإسلام والناس شيع في الدين ، وإن كانوا - إلا قليلا - في جانب ^(١) عن اليقين ، يتنازرون ويتلاعنون ، ويزعمون في ذلك أنهم بحبل الله مستمسكون ، فرقة وتخالف وشغب يظنونها في سبيل الله أقوى سبب . أنكر الإسلام ذلك كله وصرح تصريحاً لا يحتمل الريبة بأن دين الله في جميع الأزمان . وعلى ألسن جميع الأنبياء واحد قال الله تعالى (١٩:٣) إن الدين عند الله الإسلام . وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم (٣:٦٧) ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين (٤٢: ١٣) شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوم إليه (٣: ٦٤) قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا آربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون) وكثير من ذلك يطول إيراد في هذه الوريقات . والآية الكريمة التي تعيب على أهل الدين ما زعوا إليه من الاختلاف والمشاققة مع ظهور الحجة واستقامة

(١) أي بمجمل ، وقد تكرر هذا الاستعمال في كلامه . .

أصل الدين المتفق عليه وميزانه لمعرفة الحق في الخلاف ١٦٥

المحنة لهم في علم ما اختلفوا فيه — معروفة لكل من قرأ القرآن وتلاه حق تلاوته .

نص الكتاب على أن دين الله في جميع الأزمان هو إفراده بالربوبية ، والإستسلام له وحده بالعبودية ، وطاعته فيما أمر به ونهى عنه بما هو مصلحة للبشر^(١) وعماد لسعادتهم في الدنيا والآخرة ، وقد ضمنه كتبه التي أنزلها على المصطفين من رسله ، ودعا العقول إلى فهمه منه والعزائم إلى العمل به ، وأن هذا المعنى من الدين ، هو الأصل الذي يرجع إليه عند هبوب ريح التخالف ، وهو الميزان الذي توزن به الأقوال عند التناصف : وأن اللجاج والمراء في الجدل فراق مع الدين وبعد عن سنته ، ومتى روعيت حكمته ولو حظ جانب العناية الإلهية في الإنعام على البشرية ، ذهب الخلاف وتراجعت القلوب إلى هداها ، وسار الكافة في مرشدهم إخواناً بالحق مستمسكين . وعلى نصرته متعاونين .

(١) قوله : بما هو الخ ، ، صفة لما أمر به ونهى عنه كاشفة لا مفهوم لها ، والسياق استئناف لبيان وحدة الدين الجملة فيما قبله فصل فيه ما اتحد فيه الدين من أصول ومقاصد ، ثم ما اختلف فيه من شرائع ومناهج ، المنصوص في قوله تعالى (٥ : ٨) لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاج) مع الإلزام بحكمة ذلك ، وهو من الحقائق التي لم يسبقه إليها سابق .

وأما صور العبادات وضروب الاحتفالات بما اختلفت فيه الأديان الصحيحة سابقها مع لاحقها ، واختلاف الأحكام متقدمها مع متأخرها ، فصدره رحمة الله ورأفته في إيتاء كل أمة وكل زمان ما علم فيه الخير للأمة والملاءمة للزمان . وكما جرت سنته — وهو رب العالمين — بالتدرج في تربية الأشخاص من خارج من بطن أمه لا يعلم شيئاً ، إلى راشد في عقله ، كامل في نشأته ، يمزق الحجب بفكره ، ويواصل أسرار الكون بنظره ، كذلك لم تختلف سنته ولم يضطرب هديه في تربية الأمم ، فلم يكن من شأن الإنسان في جملة ونوعه أن يكون في مرتبة واحدة من العلم وقبول الخطاب من يوم خلقه الله إلى يوم يبلغ من الكمال منتهاه ، بل سبق القضاء بأن يكون شأن جملة في النمو قائماً على ما قرره الفطرة الإلهية في شأن أفرادها ، وهذا من البديهيات التي لا يصح الاختلاف فيها ، وإن اختلف أهل النظر في بيان ما تفرع منه في علوم وضعت للبحث في الاجتماع البشري خاصة ، فلا نطيل الكلام فيه ها هنا .

(ترقى الأديان بترقى الإنسان ، وإكمالها بالإسلام (١))

جاءت أديان والناس من فهم مصالحهم العامة ، بل والخاصة ، في طور أشبه بطور الطفولية للناس . الحديث العهد بالوجود ، لا يالف منه إلا ما وقع تحت حسه ، ويصعب عليه أن يضع الميزان بين يومه وأمه ، وأن يتناول بذهنه من المعاني ما لا يقرب من لمسه . ولم ينفث في روعه من الوجدان الباطن ما يعطفه على غيره من عشيرته أو بني جنسه ، فهو من الحرص على ما يقيم بناء شخصه . في هم شاغل عما يلقي إليه فيما يصله بغيره ، اللهم إلا يداً تصل إلى فمه بطعام ، أو تسنده في قعود أو قيام ، فلم يكن من حكمة تلك الأديان أن تخاطب الناس بما يلف في الوجدان ، أو يرقى إليه بسم البرهان بل كان من عظيم الرحمة أن تسير بالأقوام وهم عيال الله سير الوالد مع ولده في سداجة السن ، لا يأتيه إلا من قبل ما يحسه جسمه أو يبصره .

(١) العنوان للناس ، وهو لتثنية ذهن القارىء ، فان الموضوع من أهم حكم الدين ، وحجة عليية اجتماعية على نسخ الاسلام لما قبله من الشرائع وعلى كونه الدين الأخير الذي لا يحتاج البشر إلى الأنبياء . والوحى السماوى بعده ، وقد اشيت الحاجة إلى بيان ذلك في هذا العصر ، ولم يسبق الأستاذ الإمام إليه أحد فيما نعلم .

فأخذتهم بالأوامر الصاعدة، والزواج الرادعة، وطالبتهم بالطاعة، وحملتهم فيها على مبلغ الاستطاعة، كلفتهم بمقول المعنى جلى الغياية، وإن لم يفهموا معناه، ولم تصل مداركهم إلى مرماه، وجامتهم من الآيات بما تطرف له عيونهم، وتنفعل به مشاعرهم، وفرضت عليهم من العبادات ما يليق بحالهم هذه (١).

ثم مضت على ذلك أزمان علت فيها الأقوام وسقطت وارتفعت وانحطت، وجربت وكسبت، وتخالفت واتفقت، وذاتت من الأيام آلاما، وتقلب في السعادة والشقاء أياما وأياما. ووجدت الأنفس بنفث الحوادث، ولقن الكوارث، شعورا أدنى من الحس وأدخل في الوجدان لا يرتفع في الجملة عما تشعر به قلوب النساء أو تذهب معه نزعات الغلمان، فجاء دين يخاطب العواطف، ويناجي المراحيم، ويستعطف الأهواء، ويحادث خطرات القلوب، فشرع للناس من شرائع الزهادة ما يصرفهم عن الدنيا بجملتها. ويوجه وجوههم نحو الملكوت الأعلى، ويقتضى من صاحب الحق أن لا يطالب به ولو بحق، ويفلق أبواب السماء في وجوه الأغنياء، وما ينحو نحو ذلك بما هو معروف، وسن للناس سننا في عبادة الله تتفق مع ما كانوا عليه، وما دعاهم إليه. فلاق

(١) هذه صفة ديانات آخرها الديانة الموسوية، وما يليها فهو صفة

المسيحية.

صفة المسيحية والاهتداء بها فالانسلال منها والابتداع فيها ١٦٩

من تعلق النفوس بدعوته ما أصلح من فاسدها ، ودأوى من أمراضها ، ثم لم يمس عليه بضعة أجيال حتى ضعفت العزائم البشرية عن احتماله ، وضاعت الذرائع عن الوقوف عند حدوده والأخذ بأقواله ، ووقر في الظنون أن اتباع وصاياه ضرب من المحال ، فب القائمون عليه أنفسهم لمنافسة الملوك في السلطان ، ومزاحمة أهل الترف في جمع الأموال ، وانحرف الجمهور الأعظم منهم عن جادته بالتأويل ، وأضافوا عليه ما شاء الهوى من الأباطيل .

هذا كان شأنهم في السجاياء والأعمال : نسوا طهارته ، وباعوا نزاهته ، أما في العقائد فتفرقوا شيعاً ، وأحدثوا بدعاً ، ولم يستمسكوا من أصوله إلا بما ظنوه من أشد أركانها ، وتوهموه من أقوى دعائمها ، وهو حرمان العقول من النظر فيه ، بل وفي غيره من دقائق الآكوان ، والحظر على الأفكار أن تنفذ إلى شيء من سرائر الخلقة فصرحوا بأن لا وفاق بين الدين والعقل ، وأن الدين من أشد أعداء العلم ، ولم يكف النذاهب إلى ذلك أن يأخذ به نفسه ، بل جدد في حمل الناس على مذهبه بكل ما يملك من حول وقوة ، وأفضى الغلو في ذلك بالأنفس إلى نزعة كانت أشأم النزعات على العالم الانساني وهي نزعة الحرب بين أهل الدين ، للالزام ببعض قضايا الدين ،

١٧٠ الإسلام وكونه دين العقل والرشد لنوع الإنسان

فتقوض الأصل وتخرمت العلائق بين الأهل، وحلت القطيعة محل التراحم، والتخاصم مكان التعاون، والحرب محل السلام. وكان الناس على ذلك إلى أن جاء الإسلام.

* * *

كانت سنن الاجتماع البشري قد بلغت (١) بالإنسان أشده، وأعدته لحوادث الماضية إلى رشد، فجاء الإسلام يخاطب العقل، ويستصرخ الفهم واللب، ويشركه مع العواطف والاحساس في إرشاد الإنسان إلى سعادته الدنيوية والأخروية، وبين للناس ما اختلفوا فيه، وكشف لهم عن وجه ما اختصموا عليه، وبرهن على أن دين الله في جميع الأجيال واحد، ومشيتته في إصلاح شئونهم وتطهير قلوبهم واحدة، وأن رسم العبادة على الأشباح، إنما هو لتجديد الذكرى في الأرواح، وأن الله لا ينظر إلى الصور، ولكن ينظر إلى القلوب، وطالب المكلف برعاية جسده، كما طالبه بإصلاح سره ففرض نظافة الظاهر، كما أوجب طهارة الباطن، وعد كلا الأمرين طهراً مطلوباً، وجعل روح العبادة الاخلاص، وأن ما فرض من

(١) ذكر الأستاذ الامام ضمير السن هنا، وفي تفسير جزء عم سهواً، ثم إنه تنبيه لكون السن مؤتة فأمر بتصحيحها في جزء عم بعد طبعه، ونسى تصحيحها هنا فصحيحناها اتباعاً لتصحيحه هناك، وإن كان التأنيث مجازياً.

مزاياء الإسلام على جميع الأديان ولا سيما معاملة أهلها ١٧١

الأعمال، إنما هو لما أوجب من التخلي بمكارم الأخلاق (٢٩: ٤٥) إن الصلاة تهى عن الفحشاء والمنكر (٧٠: ١٩) إن الإنسان خلق هلوعاً ٢٠ إذا مسه الشر جزوعاً ٢١ وإذا مسه الخير منوعاً ٢٢ (إلا المصلين) ورفع الغنى الشاكر، إلى مرتبة الفقير الصابر، بل ربما فضله عليه، وعامل الإنسان في مواعظه معاملة الناصح الهادى للرجل الرشيد، فدعاه إلى استعمال جميع قواه الظاهرة والباطنة وصرح بما لا يقبل التأويل أن فى ذلك رضاء الله وشكر نعمته، وأن الدنيا مزرعة الآخرة، ولا وصول إلى خير العقبى، إلا بالسعى فى صلاح الدنيا . .

التفت إلى أهل العناد فقال لهم (٢: ١١١ و ٢٧: ٦٤) قل هاتوا - هانكم إن كنتم صادقين) وعنف النازعين إلى الخلاف والشقاق على ما عزعوا من أصول اليقين، ونص على أن التفرق بغير وخروج عن سبيل الحق المبين، ولم يقف فى ذلك عند حد الموعظة بالكلام والنصيحة بالبيان، بل شرع شريعة الوفاق وقررها فى العمل، فأباح للسلم أن يتزوج من أهل الكتاب، وسوغ مؤاكلتهم؛ وأوصى أن تكون مجادلتهم بالتي هى احسن .

ومن المعلوم أن المجانسة هى رسول المحبة وعقد الألفة، والمصاهرة

١٧٢ مبع الاسلام الاكراه في الدين وفرضه الدعوة إلى الخير الخ

إنما تكون بعد التحاب بين أهل الزوجين والارتباط بينهما بروابط الائتلاف ، وأقل ما فيها محبة الرجل لزوجته وهي على غير دينه ، قال تعالى (٢١:٣٠) ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) ثم أخذ العهد على المسلمين أن يدافعوا عن من يدخل في ذمتهم من غيرهم كما يدافعون عن أنفسهم . ونص على أن لهم مالنا وعليهم ما علينا ، ولم يفرض عليهم جزاء ذلك إلا زهيدا يقدمونه من مالهم ، ونهى بعد أداء الجزية (١) . عن كل إكراه في الدين ، وطيب قلوب المؤمنين في قوله (١٥:٥) يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) فعليهم الدعوة إلى الخير بالتي هي أحسن ، وليس لهم ولا عليهم أن يستعملوا أى ضرب من ضروب القوة في الحل على الاسلام

(١) فيه أن النهى عن الإكراه في الدين نزل قبل سورة براءة التي شرح فيها أخذ الجزية ، فالإكراه في الدين ممنوع في الاسلام مطلقاً . ولكن إذا أراد المسلمون محاربة قوم من الكافرين لتعديدهم عليهم ، أو تهديدهم لدعوتهم مثلاً ، وجب عليهم أن يدعوهم أولاً إلى الاسلام بالاختيار ، فإن أسلوا حرم قتالهم ، وإن لم يسلموا دعوهم إلى أداء الجزية إن كانوا من أهلها ، كأنهم يقولون لهم : إنكم ألقائنا إلى حريمكم فنحن نقدم عليها إلا أن تسلموا أو تؤدوا الجزية ، وهذا لا يمنع من الصلح إذا اتفق عليه الفريقان .

إبطال الاسلام للامتياز بين الأجناس وحكم عبادته ١٧٣

فإن نوره جدير أن يحترق القلوب . وليست الآية في الأمر بالمعروف بين المسلمين ، فإنه لا اعتداء إلا بعد القيام به — كل ذلك ليرشد الناس إلى أن الله لم يشرع لهم الدين ليتفرقوا فيه ، ولكن ليهديهم إلى الخير في جميع نواحيه .

رفع الاسلام كل امتياز بين الأجناس البشرية . وقرر لكل خطرة شرف النسبة إلى الله في الخلقة ، وشرف اندراجها في النوع الانساني في الجنس والفصل والخاصة . وشرف استعدادها بذلك بلوغ أعلى درجات الكمال الذي أعده الله لنوعها ، على خلاف ما زعمه المنتحلون من الاختصاص بمزايا حرم منها غيرهم ، وتسجيل الخسة على أصناف زعموا أنها لن تبلغ من الشأن أن تلحق غبارهم (١) فأما توا بذلك الأرواح في معظم الأمم ، وصيروا أكثر الشعوب هياكل وأشباحا .

هذه عبادات الاسلام على ما في الكتاب وصحيح السنة ، تنفق على ما يليق بجلال الله وسمو وجوده عن الاشياء ، وتلتزم مع المعروف

(١) هذا الامتياز لا يزال يدعيه أكثرهم ولا سيما الافرنج ، وأخذه كون الهندوس ثلاث طبقات : الطبقة السفلى تعد رجساً عند من فوقها لا تشاركها في اجتماع ولا عبادة ولا مخالطة .

عند العقول السليمة - فالصلاة ركوع وسجود ، وحركة وسكون ودعاء وتضرع ، وتسبيح وتعظيم ، وكلها تصدر عن ذلك الشعور بالسلطان الإلهي الذي يغمر القوة البشرية ويستغرق الحول ، فتخشع له القلوب ، وتستخذي له النفوس ، وليس فيها شيء يعلو على تناول العقل إلا نحو تحديد عدد الركعات ، أو رمي الجمرات . على أنه مما يسهل التسليم فيه لحكمة العليم الخبير (١) وليس فيه من ظاهر العبث واستحالة المعنى ما يخل بالأصول التي وضعها الله للعقل في الفهم والتفكير .

وأما الصوم (٢) فخرمان يعظم به أمر الله في النفس وتعرف

(١) شبه الغزالي ذلك باختلاف مقادير الدواء المركب من أجزاء مختلفة بعضها كثير وبعضها قليل ، وكون هذا التفاوت في القلة والكثرة يفوض إلى علم الطبيب الذي وصف الدواء ، وأن المريض يكفيه الثقة بعلمه والانتفاع بدرايته ، فإذا قال بعد ذلك : أنا لا أقبل منه الدواء إلا بعد أن أعلم فائدة كل جزء منه وفائدة مقداره - كان أحق ومات بدائه ، وإن ثقة المؤمن بعلم الله وحكمته أقوى وأكمل من كل ثقة بغيره من طبيب وصيدلي وسواهما ، وزاد على ذلك ثبوت فائدة الصلاة والحج وسائر العبادات في تطهير النفس من الشرور ونهبها عن الفحشاء والمنكر .

(٢) كان ينبغي أن يوضع هنا حكمة الزكاة ، ولكنه أخرها إلى مناسبة أخرى وستأتي في ص ١٨١ .

به مقادير النعم عند فقدها ، ومكانة الإحسان الإلهي في التفضل بها (٢ : ١٨٤ كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون (١)) .

وأما أعمال الحج فتد كبر للإنسان بأوليات حاجاته ، وتعبدله بتمثيل المساواة بين أفراده ولو في العمر مرة - يرتفع فيها الامتياز بين الغنى والفقير ، والصعلوك والأمير ، ويظهر الجميع في معرض واحد مكشوفى الروس متجردين عن الخيط ، وحدث بينهم العبودية لله رب العالمين ، كل ذلك مع استبقائهم في الطواف والسعي والمواقف ولمس الحجر ذكرى إبراهيم عليه السلام وهو أبو الدين ، واستقرار يقينهم على أن لا شيء من تلك البقايا الشريفة يضر أو ينفع . وهذا الإذعان الكريم في كل عمل من أعمال العبادات الإسلامية مقرون بما يدل على التنزيه ، وتقديس الله عما يوهم التشبيه (٢)

(١) راجع تفسيرها وقول المؤلف فيها في ص ١٥٧ ج ٢ من تفسير المنار طبعة أولى و ١٤٤ طبعة ثانية .

(٢) عبارة الرسالة الأولى هنا : وشعار هذا الإذعان الكريم في كل عمل « الله أكبر » ، وكان المؤلف صحح العبارة في حاشية نسخة الدرس هكذا « وهم مع هذا الإذعان الكريم في كل عمل مقرون بما ينزه الله عن التشبيه والتجسيم » ، ثم صححها ثالثة في الجدول بما أثبتناه هنا .

١٧٦ سنن النكوث وأسباب النعم والنقم فى الأفراد والامم

أين هذا كله بما تجدد فى عبادات أقوام آخرين . يضل فيها العقل
ويتعذر معها خلوص السر للتنزيه والتوحيد .

كشف الإسلام عن العقل غمة من الوهم فيما يعرض من
حوادث الكون الكبير ، العالم ، والكون الصغير ، الإنسان ،
فقرر أن آيات الله الكبرى فى صنع العالم إنما يجرى أمرها على
السنن الإلهية (١) التى قدرها فى علمه الأزل لا يغيرها شئ من
الطوارئ الجزئية ، غير أنه لا يجوز أن يغفل شأن الله فيها . بل
ينبغى أن يحيا ذكره عند رؤيتها ، فقد جاء على لسان النبي صلى الله
عليه وسلم « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت
أحد ولا لحياته . فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله حتى ينجلي » وفيه
التصريح بأن جميع آيات الكون تجرى على نظام واحد ، لا يقضى
فيه إلا العناية الأزلية على السنن التى أقامته عليها .

ثم أماط اللثام عن حال الإنسان فى النعم التى يتمتع بها
الأشخاص أو الامم ، والمصائب التى يرزموها ، ففصل بين

(١) راجع تفسير قوله تعالى (٢ : ١٣٧) قد خلت من قبلك سنن)
وما قاله المؤلف فى تفسيرها فى الجزء السادس من المجلد الحادى عشر
من المنار أو فى ص ١٣٨ من جزء التفسير الرابع .

الجزء على الأعمال في الدنيا مطرد في الأمم دون الأفراد ١٧٧

الأميرين فضلا لا مجال معه للخطئ بينهما . فأما النعم التي يتمتع الله بها بعض الأشخاص في هذه الحياة والرزايا التي يرزأ بها في نفسه ، فكثير منها كالثروة والجاه ، والقوة والبنين ، أو الفقر والضعف ، والضعف والفقد ، ربما يكون كاسبها أو جالها ما عليه الشخص في سيرته من استقامة وعوج ، أو طاعة وعصيان ، وكثيراً ما أمهل الله بعض الطغاة البغاة ، أو الفجرة الفسقة ، وترك لهم متاع الحياة الدنيا أنظاراً لهم ، حتى يتلقاهم ما أعد لهم من العذاب المقيم في الحياة الآخرة ، وكثيراً ما امتحن الله الصالحين من عباده ، وأثنى عليهم في الاستسلام لحكمه ، وهم الذين إذا أصابهم مصيبة عبروا عن إخلاصهم في التسليم بقولهم (١٥٦:٢) إنا لله وإنا إليه راجعون . فلا غضب زيد ولا رضا عمرو ، ولا إخلاص سريرة ولا فساد عمل ، مما يكون له دخل في هذه الرزايا ، ولا في تلك النعم الخاصة اللهم إلا فيما ارتباطه بالعمل ارتباط المسبب بالسبب على جاري العادة ، وكرتباط الفقر بالاسراف ، والذل بالجبن ، وضياع السلطان بالظلم ، وكرتباط الثروة بحسن التدبير في الأغلب ، والمسكانة عند الناس بالسعي في مصالحهم على الأكثر ، وما يشبه ذلك مما هو مبين في علم آخر .

وأما شأن الأمم . فليس على ذلك ، فإن الروح الذي أودعه الله

١٧٨ أسباب حياة الأمم وموتها وسعادتها وشقتها

جميع شرائعه الإلهية من تصحيح الفكر ، وتسديد النظر ، وتأديب
الآهواء ، وتحديد مطامح الشهوات ، والدخول إلى كل أمر من
بابه ، وطلب كل رغبة من أسبابها ، وحفظ الأمانة ، واستشعار
الآخرة ، والتعاون على البر ، والتناصح في الخير والشر . وغير
ذلك من أصول الفضائل — ذلك الروح هو مصدر حياة الأمم
ومشرق سعادتها في هذه الدنيا قبل الآخرة (٣ : ١٤٥) ومن يرد
ثواب الدنيا ثؤته منها ^(١)) ولن يسلب الله عنها نعمته مادام هذا
الروح فيها : يزيد الله النعم بقوته ، وينقصها بضعفه ، حتى إذا
فارقها ذهبت السعادة على أثره وتبعته الراحة إلى مقره ، واستبدل
الله عزة القوم بالذل ^(٢) . وكثرهم بالقل ، ونعيمهم بالشقاء ، وراحتهم
بالعناء ، وسلط عليهم الظالمين أو العاديين ، فأخذهم بهم وهم في غفلة
ساهون (١٧ : ١٦) وإذا أردنا أن نهلك فرية أمرنا مترفيا ففسقوا
فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا (أمرناهم بالحق ففسقوا عنه
إلى الباطل ، ثم لا ينفعهم الآئز ، ولا يجديهم البكاء ، ولا يفيدهم
ما بقى من صور الأعمال ولا يستجاب منهم الدعاء ، ولا كاشف لما
نزل بهم إلا أن يلجئوا إلى ذلك الروح الأكرم فيستنزلوه من سماء

(١) راجع تفسير المؤلف لهذه الآية في الجزء الرابع من تفسير المنار

(٢) الصواب في استعمال الاستبدال والتبدل أن تقرن الباء

بالمبدل منه .

فريضة التفقه في الدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١٧٩

الرحمة برسول الفكر والذكر ، والصبر والشكر (١٣ : ١١) إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم (٣٣ : ٦٢) سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا (وما أجل ما قاله العباس ابن عبد المطلب في استسقاائه اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب ، ولم يرفع إلا بتوبة .

على هذه السنن جرى سلف الأمة ، فبينما كان المسلم يرفع روحه بهذه العقائد السامية ، ويأخذ نفسه بما يتبعها من الأعمال الجليلة . كان غيره يظن أنه يزول الأرض بدعائه ، ويشق الفلك بكائه ، وهزل بأهوائه ماض في غلوائه ، وما كان يغني عنه ظنه من الحق شيئا (١) .

حث القرآن على التعليم وإرشاد العامة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقال (٩ : ١٢٢) فلو لا نقر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون (ثم فرض ذلك في قوله (٣ : ١٠٤) ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون ١٠٥) ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا

(١) يعني ان المسلمين لما كانوا في القرون الاولى يجهلون على سنن الله تعالى في أسباب السيادة والقوة كان بعض الشعوب كالنصارى مغرورين بدينهم يظنون أنهم يسألون كل شيء وتخفق لهم العوائد ببركة القديسين ودعائهم ، ثم انقلبت الحال كما ترى .

١٨٠ تعظيم القرآن لشأن فريضة الأمر بالمعروف الخ

من بعد ما جاءهم البيناب وأولئك لهم عذاب عظيم ١٠٦ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتهم بعد إيمانكم ؟ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ١٠٧ وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون ١٠٨ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلماً للعالمين ١٠٩ والله ما في السموات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور) .

ثم بعد هذا الوعيد الذي يزعم المفرطين ، وتحق به كلبة العذاب على المختلفين والمقصرين ، أبرز حال الأمايين بالمعروف النهائي عن المنكر في أجلّ مظهر يمكن أن تظهر فيه حال أمة فقال (٣ : ١١٠) كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله (١) فقدم ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان في هذه الآية مع أن الإيمان هو الأصل الذي تقوم عليه أعمال البر ، والدوحة التي تتفرع عنها أفنان الخير تشريفاً لتلك الفريضة وإعلاء منزلتها بين الفرائض ، بل تنبيهاً على أنها حفاظ الإيمان وملاك أمره ، ثم شد بالإنكار على قوم أغفلوها . وأهل دين أهملوها ، فقال (٥ : ٧٨) لعن الذين كفروا

(١) راجع تفسير هذه الآية والآيات التي بعدها وما قاله المؤلف فيها في الجزء الرابع من تفسير المنار .

فريضة الزكاة ومصارفها وفوائدها وفضيلة الاتفاق في الخير ١٨١

من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا .
وكانوا يعتدون ٧٩ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس
ما كانوا يفعلون) فذنب عليهم اللعنة وهي أشد ما عنون الله به على
مقته وغضبه ^(١) .

* * *

فرض الإسلام للفقراء في أموال الأغنياء حقاً معلوماً يفيض
به الغنى على الفقير ، سداً لحاجة المعدم ، وتقريراً لكربة الغارم ،
وتحريراً لرقاب المستعبدين ، وتيسيراً لأبناء السبيل ، ولم يبحث
على شيء حثه على الاتفاق من الأموال في سبيل الخير ، وكثيراً
ما جعله عنوان الإيمان ، ودليل الاهتداء إلى الصراط المستقيم ،
فاستل بذلك ضغائن أهل الفاقة ، ومحض صدورهم من الأحقاد
على من فضلهم الله عليهم في الرزق ، وأشعر قلوب أولئك محبة
هؤلاء ، وساق الرحمة في نفوس هؤلاء على أولئك البائسين ،
فاستقرت بذلك الطمأنينة في نفوس الناس أجمعين . وأى دواء
لأمراض الاجتماع أنجمع من هذا ؟ (٦٢ : ٤ ذلك فضل الله يؤتيه
من يشاء والله ذو الفضل العظيم) أغلق الإسلام باب الشر وسد
ينبوعى فساد العقل والمال بتحريمه الخمر والمقامرة والربا تحريماً باتاً

(١) راجع تفسيرها في جزء التفسير السادس .

لا هوادة فيه .

لم يدع الاسلام بعد ما قررنا أصلاً من أصول الفضائل إلا أنى عليه ، ولا أما من أمهات الصالحات إلا أحيائها ، ولا قاعدة من قواعد النظام إلا قررها ، فاستجمع للانسان عند بلوغ رشده كما ذكرنا حرية الفكر ، واستقلال العقل في النظر ، وما به صلاح الشجايا واستقامة الطبع ، وما فيه إنهاء العزائم إلى العمل ، وسوقها في سبيل السعى ، ومن يتل القرآن حق تلاوته يجد فيه من ذلك كنزاً لا ينفد ، وذخيرة لا تنفد .

هل بعد الرشد وصاية ؟ وبعد اكتمال العقل ولاية ؟ كلا قد تبين الرشد من الغي ، ولم يبق إلا اتباع الهدى . والارتفاع بما ساقته أيدي الرحمة لبلوغ الغاية من السعادات .

لهذا ختمت النبوات بنبوة محمد (ص) وانتهت الرسالات برسالاته كما صرح بذلك الكتاب وأيدته السنة الصحيحة ، وبرهنت عليه خيبة مدعيها من بعده ، واطمئنان العالم بما وصل إليه من العلم إلى أن لاسبيل بعد لقبول دعوة يزعم القائم بها أنه يحدث عن الله بشرع أو يصدع عن وحيه بأمر ، هكذا يصدق نبأ الغيب (٣٣ : ٤٠ ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين . وكان الله بكل شيء عليماً) .

انتشار الاسلام

بسرعة لم يعهد لها نظير في التاريخ

كانت حاجة الأمم إلى الإصلاح عامة فجعل الله رسالة خاتم النبيين عامة كذلك ، لكن يدهش عقل الناظر في أحوال البشر عندما يرى أن هذا الدين يجمع إليه الأمة العربية من أدناها إلى أقصاها في أقل من ثلاثين سنة ، ثم يتناول من بقية الأمم ما بين المحيط الغربي وجدار الصين في أقل من قرن واحد ، وهو أمر لم يعهد في تاريخ الأديان ، ولذلك ضل الكثير في بيان السبب ، واهتدى إليه المنصفون فبطل العجب .

ابتدأ هذا الدين بالدعوة كغيره من الأديان ، ولقي من أعداء أنفسهم أشد ما يلقي حق من باطل : أوذى الداعي (ص) بضروب الأليذاء وأقيم في وجهه ما كان يصعب تذليله من العقاب لولا عناية الله ، وعذب المستجيبون له ، وحرموا الرزق ، وطردهوا من الدار وسفكت منهم دماء غزيرة ، غير أن تلك الدماء كانت عيون العزائم تتفجر من صخور الصبر ، يثبت الله بمشهدها المستيقنين . ويقذف بها الرعب في أنفس المرتابين ، فكانت تسيل لمنظرها نفوس أهل الرعب وهي ذوب مافسد من طباعهم ، فتجرى من

مناحرهم جرى الدم الفاسد من المفصود على أيدي الأطباء الخاذقين.
(٨: ٣٧) ليميز الله الحديث من الطيب ويجعل الحديث بعضه على
بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون).

تألبت الملل المختلفة بمن كان يسكن جزيرة العرب وما جاورها
على الإسلام ليحصدوا نبتته ، ويخنقوا دعوته ، فما زال
يدافع عن نفسه دفاع الضعيف للأقوياء ، والفقير للأغنياء ، ولا
ناصر له إلا أنه الحق بين الأباطيل ، والرشد في ظلمات الأضاليل ،
حتى ظفر بالعزة ، وتعزز بالمنعة . وقد وطىء أرض الجزيرة
أقوام من أديان آخر كانت تدعو إليها . وكانت لهم ملوك وعزة
وسلطان . وحملوا الناس على عقائدهم بأنواع من المسكاره . ومع
ذلك لم يبلغ بهم السعي نجاحاً . ولا انالهم القهر فلاحاً .

ضم الإسلام سكان القفار العربية إلى وحدة لم يعرفها تاريخهم ،
ولم يعد لها نظير في ماضيهم ، وكان النبي (ص) قد أبلغ رسالته
بأمر ربه إلى من جاور البلاد العربية من ملوك الفرس والرومان ،
فهنأوا وامتنعوا ، وناصروه وقومه الشر ، وأخافوا السابلة ، وضيقوا
على المتاجر ، فغزاهم بنفسه ، وبعث إليهم البعث في حياته ، وجرى
على سنته الأئمة من صحابته ، طلباً للأمن ، وإبلاغاً للدعوة ، فاندفعوا

في ضعفهم وفقيرهم يحملون الحق على أيديهم ، وإنهالوا به على تلك الأمم في قوتها ومنعتها ، وكثرة عددها ، واستكمال أهليها وعددها ، فظفروا منها بما هو معلوم . وكانوا متى وضعت الحرب أوزارها واستقر السلطان للفتح عطفوا على المغلوبين بالرفق واللين ، وأباحوا لهم البقاء على أديانهم وإقامة شعائرها آمنين مطمئنين ، ونشروا حمايتهم عليهم بمنعوتهم مما يمنعون منه أهلهم وأموالهم ، وفرضوا عليهم كفاء ذلك جزءاً قليلاً من مكاسبهم على شرائط معينة .

كانت الملوك من غير المسلمين إذا فتحوا مملكة أتبعوا جيشها الظافر بجيش من الدعاة إلى دينها ، يلجئون على الناس بيوتهم ويغشون مجالسهم ليحملوهم على دين الظافر ، وبرهانهم الغلبة ، وحجتهم القوة ، ولم يقع ذلك لفتح من المسلمين ، ولم يعد في تاريخ فتوح الإسلام أن كان له دعاة معروفون لهم وظيفة ممتازة يأخذون على أنفسهم العمل في نشره ويقفون مساعده على بث عقائده بين غير المسلمين ، بل كان المسلمون يكتفون بمخالطة من عداهم ومحاسنتهم في المعاملة ، وشهد العالم بأسره أن الإسلام كان يعد مجاملة المغلوبين فضلاً وإحساناً عند ما كان يعدها الأوربيون ضعة وضعفاً .

رفع الإسلام ما ثقل من الآثاوات ، ورد الأموال المسلوقة إلى

١٨٦ حرية الأديان في بلاد المسلمين وتوليهم المناصب لغيرهم

أربابها ، وانتزع الحقوق من مقتصبيها ، ووضع المساواة في الحق عند التقاضي بين المسلم وغير المسلم .

بلغ أمر المسلمين فيما بعد أن لا يقبل إسلام من داخل فيه إلا بين يدي قاض شرعي بإقرار من المسلم الجديد أنه أسلم بلا إكراه ولا رغبة في دنيا^(١) .

وصل الأمر في عهد بعض الخلفاء الأمويين أن كره عمالهم دخول الناس في دين الإسلام لما رأوا أنه ينقص من مبالغ الجزية وكان في حال أولئك العمال صد عن سبيل الدين لا محالة ، ولذلك أمر عمر بن عبد العزيز بتعزيز مثل أولئك العمال^(٢) .

عرف خلفاء المسلمين وملوكهم في كل زمان ما لبعض أهل الكتاب بل وغيرهم من المهارة في كثير من الأعمال فاستخدموهم وصعدوا بهم إلى أعلى المناصب حتى كان منهم من تولى قيادة الجيش في أسبانيا .

اشتهرت حرية الأديان في بلاد الإسلام حتى هجر اليهود أوربا فراراً منها بدينهم إلى بلاد الأندلس وغيرها .

(١) لقد كان هذا في الدولة العثمانية والأقطار الخاضعة لسيادتها كصر بنفوذ دول الإفرنج فيها وهو مخالف للشريعة الإسلامية ، ومحل بشرف الدولة (٢) شكاً إليه عامله بمصر ذلك فأجاب : إن محمداً (ص) بمك هادياً ، ولم يبعث جانياً ، وياله من جواب عن آناه الله الحكمة وفصل الخطاب

بيان أسباب انتشار الاسلام واهتداء الناس به مختارين ١٨٧

هذا ما كان من أمر المسلمين في معاملتهم لمن أظلمهم بسيوفهم لم يفعلوا شيئاً سوى أنهم حملوا إلى أولئك الأقوام كتاب الله وشريعته وألقوا بذلك بين أيديهم ، وتركوا الخيار لهم في القبول وعدمه ، ولم يقوموا بينهم بدعوة ، ولم يستعملوا إكراههم عليه شيئاً من القوة ، وما كان من الجزية لم يكن مما يثقل أدائه على من ضربت عليه — فما الذي أقبل بأهل الأديان المختلفة على الإسلام وأقنعهم أنه الحق دون ما كان لديهم حتى دخلوا فيه أفواجاً وبذلوا في خدمته ما لم يبذله العرب أنفسهم ؟

ظهور الإسلام على ما كان في جزيرة العرب من ضروب العبادات الوثنية وتغلبه على ما كان فيها من رذائل الأخلاق وقبائح الأعمال وسيره بسكانها على الجادة القويمة — حقق لقراء الكتب الإلهية السابقة أن ذلك هو وعد الله لنبيه إبراهيم وإسماعيل وتحقيق استجابة دعاء الخليل (٢ : ١٢٩ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) وأن هذا الدين هو ما كانت تبشر به الأنبياء أقوامها من بعدها (١)

(١) تراجع هذه البشارات في تفسير قوله تعالى (٧ : ١٥٧) الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل) في الجزء التاسع من تفسير المنار .

١٨٨ مزايا الاسلام التي لاجلها تركت الشعوب أديانها وآثرته

فلم يجد أهل النصفه منهم سبيلا إلى البقاء على العناد في مجاحدته فتلقوه شاكرين ، وتركوا ما كان لهم بين قومهم صابرين .
أوقع ذلك من الريب في قلوب مقلديهم ما حركهم إلى النظر فيه ، فوجدوا لطفاً ورحمة ، وخيراً ونعمة ، لا عقيدة ينفر منها العقل وهو رائد الإيمان الصادق ، ولا عمل تضعف عن احتماله الطبيعة البشرية وهي القاضية في قبول المصالح والمرافق ، رأوا أن الاسلام يرفع النفوس بشعور من اللاهوت ، يكاد يعلو بها عن العالم السفلي ويلحقها بالملكوت الأعلى ، ويدعوها إلى إحياء ذلك الشعور بخمس صلوات في اليوم ، وهو مع ذلك لا يمنع من التمتع باللطيمات ، ولا يفرض من الرياضات وضروب الزهادة ما يشق على الفطرة البشرية تجشمه ، ويعد برضا الله ونيل ثوابه حتى في توفية البدن حقه متى حسنت النية وخلصت السريرة ، فإذا نزت شهوة أو غلب هوى كان الغفران الالهي ينتظره متى حسنت التوبة ، وكلت الآوبة .

تبدت لهم سذاجة الدين عند ما قرؤوا القرآن ونظروا في سيرة الطاهرين من حامليه إليهم ، وظهر لهم الفرق بين مالا سبيل إلى فهمه وما تسكن في جولة نظر في الوصول إلى عليه (*) فتراموا إليه خفافاً من ثقل ما كانوا عليه .

(*) الأول: كالجمع بين التثليث والتوحيد . والثاني : عالم الغيب غير المحال

جمع الإسلام بين الدين والعقل والعدل والمساواة التامة ١٨٩

كانت الأمم تطلب عقلا في دين فوافاهما ، وتتطلع إلى عدل في إيمان فأتاها ، فما الذى يحجم بها عن المسارعة إلى طلبها ، والمبادرة إلى رغبتهما ؟ كانت الشعوب تن من ضروب الامتياز التى رفعت بعض الطبقات على بعض بغير حق ، وكان من حكمها أن لا يقام وزن لشئون الأديين متى عرضت دونها شهوات الأعلين . فجاء دين يحدد الحقوق ، ويسوى بين جميع الطبقات في احترام النفس والدين والعرض والمال . وبسوغ لامرأة فقيرة غير مسلمة أن تأبى بيع بيت صغير بأية قيمة لأمير عظيم مطلق السلطان في قطر كبير وما كان يريده لنفسه ولكن ليوسع به مسجداً فلما عقد العزيمة على أخذه مع دفع أضعاف قيمته ، رفعت الشكوى إلى الخليفة فورد أمره بردها إليها مع لوم الأمير على ما كان منه (١) . عدل يسمح لليهودى أن يخاصم مثل على بن أبى طالب أمام القاضى وهو من نعلم من هو ، ويستوفقه معه للتقاضى إلى أن قضى الحق بينهما .

هذا وما سبق بيانه بما جاء به الإسلام هو الذى حبيه إلى من كانوا أعداءه ، ورد إليه أهواءهم حتى صاروا أنصاره وأولياءه

(١) وقع هذا لامرأة قبطية مع أمير مصر وفتحها عمرو بن العاص والخليفة التى أشكاها منه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض)

١٩٠ مزايا الإسلام بسهولة تعقله ويسر أحكامه ومواقفته للفتنة

غلب على المسلمين في كل زمن روح الإسلام فكان من خلقهم العطف على من جاورهم من غيرهم ، ولم تستشعر قلوبهم عداوة لمن خالفهم إلا بعد أن يجرهم الجار ، فهم كانوا يتعلمونها من سواهم ، ثم لا يكون إلا طائفاً يحل ثم يرتحل ، فإذا انقطعت أسباب الشغب تراجعت القلوب إلى سابق ما ألفته من اللين والمياسرة ، ومع ذلك بل وغفلة المسلمين عن الإسلام وخذلانهم له وسعى الكثير منهم في هدمه بعلم وبغير علم ، لم يقف الإسلام في انتشاره عند حد . خصوصاً في الصين وفي أفريقيا ، ولم يخل زمن من رؤية جموع كثيرة من ملل مختلفة تنزع إلى الأخذ بعقائده على بصيرة فيما تنزع إليه : لا سيف وراها ، ولا داعي أمامها ، وإنما هو مجرد الاطلاع على ما أودعه ، مع قليل من حركة الفكر في العلم بما شرعه .

ومن هذا تعلم أن سرعة انتشار الدين الإسلامي ، وإقبال الناس على الاعتقاد به من كل ملة إنما كان لسهولة تعقله ، ويسر أحكامه وعدالة شريعته ، وبالجملة لأن فطر البشر تطلب ديناً وترتاد منه ما هو أفسس بمصالحها ، وأقرب إلى قلوبها ومشاعرها ، وأدعى إلى الطمأنينة في الدنيا والآخرة ، ودين هذا شأنه يجدد إلى القلوب منفذاً وإلى العقول مخلصاً ، وبدون حاجة إلى دعاة ينفقون الأموال الكثيرة ، والأوقات الطويلة ، ويستكثرون من الوسائل ونصب الحبائل لإسقاط النفوس فيه .

هذا كان حال الإسلام في سذاجته الأولى ، وطهارته التي أنشأه الله عليها ، ولا يزال على جانب عظيم منها في بعض أطراف الأرض إلى اليوم .

* * *

قال من لم يفهم ما قدمناه أو لم يرد أن يفهمه : إن الإسلام لم يطف على قلوب العالم بهذه السرعة إلا بالسيف ، لقد فتح المسلمون ديار غيرهم والقرآن يأحدى اليدين والسيف بالآخرى ، يعرضون القرآن على المغلوب فإن لم يقبله فصل السيف بينه وبين حياته سبحانه هذا بهتان عظيم ! ما قدمناه من معاملة المسلمين مع من دخلوا تحت سلطانهم هو ما تواترت به الأخبار تواتراً صحيحاً لا يقبل الريبة في جملة ، وإن وقع اختلاف في تفصيله ، وإنما شهر المسلمون سيوفهم دفاعاً عن أنفسهم ، وكفا للعدوان عنهم ، ثم كان الافتتاح بعد ذلك من ضرورة الملك ، ولم يكن من المسلمين مع غيرهم إلا أنهم جاوروهم وأجاروهم . فكان الجوار طريق العلم بالإسلام . وكانت الحاجة لصلاح العقل والعمل داعية الانتقال إليه . لو كان السيف ينشر ديناً^(١) فقد عمل في الرقاب للاكراه على .

(١) هذا بيان لما فعله الافرنج من نشر النصرانية بالاكراه ، وقهر القوة العسكرية قبل الإسلام وبعده ، وهو الذي اتهموا به المسلمين من بعد زوراً وبهتاناً .

الدين والإلزام به . مهدداً كل أمة لم تقبله بالإبادة والمحو من سطح البسيطة ، مع كثرة الجيوش ووفرة العدد ، وبلوغ القوة أسمى درجة كانت تمكن لها ، وابتدأ ذلك العمل قبل ظهور الإسلام بثلاثة قرون كاملة ، واستمر في شدته بعد مجيء الإسلام سبعة أجيال أو يزيد . فتلك عشرة قرون كاملة لم يبلغ فيها السيف من كسب عقائد البشر مبلغ الإسلام في أقل من قرن ، هذا ولم يكن السيف وحده بل كان الحسام لا يتقدم خطوة إلا والدعاة من خلفه يقولون ما يشاءون تحت حمايته ، مع غيرة تفيض من الأقدسة ، وفصاحة تتدفق عن الألسنة ، وأموال تخلب أبواب المستضعفين ، إن في ذلك لآيات للمستيقنين .

جلت حكمة الله في أمر هذا الدين : سلسيل حياة نبع في القفار العربية ، أبعد بلاد الله عن المدينة فاض حتى شملها فجمع شملها فأحيها حياة شعبية مليئة ، علامده حتى استغرق بمالك كانت تفاخر أهل السماء في رفعتها ، وتعلو أهل الأرض بمدنيتهما ، زلزل هديره على لينة ما كان استحجر من الأرواح فانشقت عن مكنون سر الحياة فيها ، قالوا كان لا يخلو من غلب (بالتحريك) قلنا تلك سنة الله في الخلق : لا تزال المصارعة بين الحق والباطل . والرشد والغي ، قائمة في هذا العالم إلى أن يقضى الله قضاءه فيه . إذا ساق الله ربيعاً إلى أرض

حرب التار ثم الحرب الصليبية المسلمين ١٩٣

جذبة ليحيي ميتهما ، وينفع غلتها ، وينمي الخصب فيها ، أفينة ص من قدره أن أتى في طريقه على عقبة فعلاها ، أو بيت رفيع العباد . فهو به ؟

سطح الإسلام على الديار التي بلغها أهله^(١) فلم يكن بين أهل تلك الديار وبينه إلا أن يسمعوا كلام الله ويفقهوه ، واشتغل المسلمون بعضهم ببعض زمناً وانحرفوا عن طريق الدين أزماناً ، فوقف وقفة القائد خذله الأنصار ، وكاد يتزحزح إلى ماوراءه ، لكن الله بالغ أمره ، فأنحدرت إلى ديار المسلمين أمم من التار يقودها جنكيز خان وفعلوا بالمسلمين الأفاعيل ، وكانوا وثنين ، جاموا المحض الغلبة والسلب والهب ، ولم يلبث أعقابهم أن اتخذوا الإسلام ديناً . وحملوه إلى أقوامهم فعمهم منه ماعم غيرهم : جاءوا لشقوتهم فعادوا بسعادتهم . حمل الغرب على الشرق حملة واحدة^(٢) لم يبق ملك من ملوك ولا شعب من شعوبه إلا اشترك فيها ، واستمرت المجالدات بين الغربيين

(١) بيان لما فعله الاسلام من هداية شعوب الاعاجم في أثر بيان ما فعله في العرب .

(٢) بيان للحروب الصليبية لإبادة الإسلام من الشرق ، وينبغي لكل مسلم أن يعرف تفصيلها وما استفاده الأوروبيون من فضائل الإسلام التي حملتهم على إصلاح أمور دينهم ودنياهم ، وأكثر المسلمين يجهلون هذا

والشرقيين أكثر من مائتي سنة جمع فيها الغرييون من الغيرة والحمية للدين مالم يسبق لهم من قبل ، وجيشوا من الجند وأعدوا من القوة ما بلغت طاقته ، وزحفوا إلى ديار المسلمين ، وكانت فيهم بقية من روح الدين ، فغلب الغرييون على كثير من البلاد الإسلامية وانتهت تلك الحروب الجارفة بإجلائهم عنها ،

لم جاءوا وبماذا رجعوا ؟ ظفر رؤساء الدين في الغرب بإثارة شعوبهم ليبيدوا ما يشاءون من سكان الشرق أو يستولى سلطان تلك الشعوب على ما يعتقدون لأنفسهم الحق في الاستيلاء عليه من البلاد الإسلامية ، جاء من الملوك والأمراء وذوى الثروة وعلية الناس جم غفير ، وجاء من دونهم من الطبقات ما قدره بالملايين ، استقر المقام بكثير من هؤلاء في أرض المسلمين ؛ وكانت قترات تنطلق فيها نار الغضب وتثوب العقول إلى سكينتها . تنظر في أحوال المجاورين ، وتلتقط من أفكار المخالطين ، وتنفعل بما ترى وما تسمع ، فتبين أن المبالغات التي أطاشت الأحلام ، وجسمت الآلام ، لم تصب مستقر الحقيقة ، ثم وجدت حرية في دين ، وعلها وشرعاً وصنعة مع كمال في يقين ، وتعلمت أن حرية الفكر وسعة العلم من وسائل الإيمان لامن العوادي عليه ، ثم جمعت من الآداب ما شاء الله وانطلقت إلى بلادها قرية العين بما غنمته من جلادها ، هذا إلى ما كسبه السفار

من أطراف الممالك إلى بلاد الأندلس . بمخالطة حكائها وأدبائها ، ثم عادوا به إلى شعوبهم ليذيقوهم حلاوة ما كسبوا ، وأخذت الأفكار من ذلك العهد تراسل والرغبة في العلم تزايد بين الغربيين ، ونهضت الهمة لقطع سلاسل التقليد ، ونزعت العزائم إلى تقييد سلطان زعماء الدين ، والاختذ على أيديهم فيما تجاوزوا فيه وصاياه ، وحرفوا في معناه ، ولم يكن بعد ذلك إلا قليل من الزمن حتى ظهرت طائفة منهم تدعو إلى الإصلاح والرجوع بالدين إلى سذاجته وجاءت في إصلاحها بما لا يبعد عن الإسلام إلا قليلا ، بل ذهب بعض طوائف الإصلاح في العقائد (١) إلى ما يتفق مع عقيدة الإسلام إلا في التصديق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وأن مام عليه إنما هو دينه يختلف عنه اسماً ولا يختلف معنى إلا في صورة العبادة لا غير .

ثم أخذت أمم أوروبا تفتك من أسرها ، وتصلح من شئونها حتى استقامت أمور دنياها على مثل مادعا إليه الإسلام ، غافلة عن قائدها ، لاهية عن مرشدها ، وتقررت أصول المدينة الحاضرة ، التي تفاخر بها الأجيال المتأخرة ما سبقها من أهل الأزمان الغابرة ،

هذا ظل من وابله أصاب أرضاً قابلة فاهتزت وربت وأنبئت

(١) هم طائفة الموحدين وأكثرهم من الإنجليز والأميركان

١٩٦ الاحتجاج بحال المسلمين على ما ذكر من إصلاح الإسلام

من كل زوج مهيج ، جاء القوم ليبيدوا ، فاستفادوا وعادوا ليفيدوا .
ظن الرؤساء أن في إهاجة شعوبهم شفاء ضغنتهم ، وتقوية ركنهم .
فبأوا بوضوح شأنهم وضعضة سلطانهم ، وما يبناه في شأن الإسلام
— ويعرفه كل من تفقه فيه — قد ظفر به كثير من أهل النظر
في بلاد الغرب فعرفوا له حقه ، واعترفوا أنه كان أكبر أساتذتهم
فيما هم فيه اليوم ^(١) وإلى الله عاقبة الأمور .

إيراد سهل الايراد

يقول قائلون : إذا كان الإسلام إنما جاء لدعوة المختلفين إلا
الاتفاق وقال في كتابه (٦ : ١٥٩ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا
شيعاً لست منهم في شيء) فما بال الملة الإسلامية قد مزقتها
المشارب ، وفرقت بين طوائفها المذاهب ؟

إذا كان الاسلام موحداً فما بال المسلمين عددوا ؟ إذا كان
مولياً وجه العبد وجهه الذي خلق السموات والأرض ، فما بال
جمهورهم يولون وجوههم من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرراً ،
ولا يستطيع من دون الله خيراً ولا شراً ، وكادوا يعدون ذلك
فضلاً من فصول التوحيد ؟

(١) قد أورد المؤلف الشواهد على هذا في كتابه (الاسلام

١٩٧ كون أكثر المسلمين على ضد ما جاء به الاسلام

إذا كان أول دين خاطب العقل ودعاه إلى النظر في الآكوان وأطلق له العنان ، يحول في ضمائرهما بما يسعه الإمكان ، ولم يشرط عليه في ذلك سوى المحافظة على عقد الإيمان ، فما بالهم قنعوا باليسير وكثير منهم أغلق على نفسه باب العلم ، ظننا منه أنه قد يرضى الله بالجهل وإغفال النظر فيما أبدع من محكم الصنع ؟

ما بالهم وقد كانوا رسل المحبة أصبحوا اليوم وهم يتنسمونها ولا يجدونها ؟ ما بالهم بعد أن كانوا قدوة في الجود والعمل ، أصبحوا مثلاً في القعود والكسل ؟

ما هذا الذي ألحق المسلمون بدينهم وكتاب الله بينهم يقيم ميزان القسط بين ما ابتدعوه ، وبين ما دعاهم إليه فتركوه ؟

إذا كان الإسلام في قربه من العقول والقلوب على ما بينت ، فما باله اليوم على رأي القوم تقصر دون الوصول إليه يد المتناول ؟ -
إذا كان الإسلام يدعو إلى البصيرة فيه فما بال قراء القرآن لا يقرءونه إلا تغنياً ، ورجال العلم بالدين لا يعرفه أغلبهم إلا تظلياً ؟
إذا كان الإسلام منح العقل والإرادة شرف الاستقلال . فما بالهم شدوها إلى أغلال أى أغلال ؟

إذا كان قد أقام قواعد العدل ، فما بال أغلب حكمهم يضرب بهم المثل في الظلم ؟

إذا كان الدين في تشوف إلى حرية الأرقاء . فما بالهم قضا قروناً في استعباد الأحرار ؟

إذا كان الاسلام يعد من أركانه حفظ العهود والصدق والوفاء . فما بالهم قد فاض بينهم الغدر والكذب والزور والافتراء ؟
إذا كان الاسلام يحظر الغيلة ويحرم الخديعة ويوعده على الغش بأن الغاش ليس من أهله ، فما بالهم يحتالون حتى على الله وشرعه واوليائه ؟

إذا كان قد حرم الفواحش ماظهر منها ومابطن ، فما هذا الذي نراه بينهم في السر والعلن ، والنفس والبدن ؟

إذا كان قد صرح بأن الدين النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين خاصتهم وعامتهم و (إن " الانسان لني خسر " إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) وأنهم إن لم يأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر سلبت عليهم شرارهم فيدعو خيارهم فلا يستجاب لهم ") وشدد في ذلك بما لم يشدد في غيره .
فما بالهم لا يتناصحون ولا يتواصون بحق ولا يعتصمون بصبر ، ولا يتناصحون في خير ولا شر ؟ بل ترك كل صاحبه . وألقى حبله على غاربه ، فعاشوا أفذاذاً ، وصاروا في أعمالهم أفراداً . لا يحس

(١) ان هنا مكسورة حكاية لنص القرآن . أى وصرح بهذا النص

(٢) هو مضمون حديث مرفوع رواه البزار والطبراني في الأوسط

عن أبي هريرة .

استضاءة الغرب بقبس من الاسلام وأهله في شمس لا يبصرون ١٩٩

أحدهم بما يكون من عمل أخيه كأنه ليس منه ، وكأنه لم تجمعه معه
علة . ولم تضعه إليه وشيعة .

ما بال الأبناء يقتلون الآباء ؟ وما بال البنات يعققن الأمهات ؟
أين وشائج الرحمة ؟ أين عاطفة الرحم على القريب ؟ أين الحق
الذي فرض في أموال الأغنياء للفقراء . وقد أصبح الأغنياء
يسلبون ما بقي في أيدي أهل البأساء ؟

قبس من الإسلام أضواء الغرب كما تقول وضوءه الأعظم
وشمس الكبرى في الشرق . وأهله في ظلمات لا يبصرون . أصبح هذا
في عقل ؟ أو عهد في نقل ؟ ألم تر إلى الذين تذوقوا من العلم شيئاً وهم
عن أهل هذا الدين أول ما يعلق بأوهام أكثرهم أن عقائده خرافات ،
وقواعده وأحكامه ترهات ؟ ويجدون لذتهم في التشبه بالمستهزئين
من سمو أنفسهم أحرار الأفكار ، وبعدها الأنظار . وإلى الذين
فصروا همهم على تصفح أوراق من كتبه ، ووسمو أنفسهم بأنهم
حفاظ أحكامه والقوام على شرائعه . كيف يحافون علوم النظر
ويزهون بها ، ويرون العمل فيها (١) عبثاً في الدين والدنيا ، ويفتخرون
الكثير منهم بجهلها ، كأنه في ذلك قد هجر منكر ، وترفع عن
ذنبته ، فمن وقف على باب العلم من المسلمين ، يجد دينه كالثوب
الخلق يستحي أن يظهر به بين الناس ، ومن غرته نفسه بأنه على

(١) أي في ضمن ما أرشدت إليه من النظم والفنون والصناعات .

٢٠٠ الإسلام والتاريخ حجة على المسلمين وليسوا حجة عليهما

شيء من الدين وأنه مستمسك بعقائده ، يرى العقل جنة . والعلم ظنة ، أليس في هذا ما يشهد الله وملائكته والناس أجمعين ، على أن لا وفاق بين العلم والعقل وهذا الدين ١٩

الجواب

ربما لم يبالغ الواصف لما عليه المسلمون اليوم بل من عدة أجيال ، وربما كان ما جاء في الإيراد قليلا من كثير ، وقد وصف الشيخ الغزالي رحمه الله وابن الحاج وغيرهما (١) من أهل البصر في الدين ما كان عليه مسلمو زمانهم عامتهم وخاصتهم بما حوته مجلدات ، ولكن قد أتيت في خاصة الدين الإسلامي بما يكفي للاعتراف به مجرد تلاوة القرآن ، مع التدقيق في فهم معانيه وحملها على ما فهمه أوتاك الذين أنزل فيهم وعمل به بينهم ، ويكفي في الاعتراف بما ذكرته من جميل أثره قراءة ورقات في التاريخ على ما كتبه محققو الاسلام ومنصفو سائر الأمم ، فذلك هو الاسلام . وقد أسلفنا أن الدين هدى وعقل ، من أحسن في استعماله والآخر بما أرشد إليه ، فال من السعادة ما وعد الله على اتباعه . وقد جرب علاج الاجتماع الانساني بهذا الدواء فظهر نجاحه ظهوراً لا يستطيع معه الأعمى إنكاراً . ولا الأصم إعراضاً ، وغاية ما قيل في الإيراد أن

(١) كالشاطبي في كتابه . الاعتصام ، والبركوي في كتابه الطريقة المحمدية .

كتاب الإسلام والنصرانية مفسر لهذه الرسالة ٢٠١

أعطى الطبيب المريض دواء فصيح المريض^(١) وانقلب الطبيب بالمرض الذي كان يعمل لمعالجته ، وهو يتجرع الغصص من آلامه والدواء في يته وهو لا يتناوله وكثير من يعودونه أو يتشفون منه ويشمتون لمصيته يتناولون من ذلك الدواء فيعافون من مثل مرضه ، وهو في بأس من حياته ، ينتظر الموت أو تبدل سنة الله في شفاء أمثاله . كلامنا اليوم في الدين الإسلامي وحاله على ما بيناه وأما المسلمون وقد أصبحوا بسيرهم حجة على دينهم فلا كلام لنا فيهم الآن ، وسيكون الكلام عنهم في كتاب آخر إن شاء الله^(٢) .

﴿النصديق بما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وسلم﴾

بعد أن ثبتت نبوته عليه السلام بالدليل القاطع على ما بيناه ، وأنه إنما يخبر عن الله تعالى ، فلا ريب أنه يجب تصديق خبره ، والإيمان

(١) إن هذا المريض الذي شفى من أمراض الجهل والتقليد والرق للبلوك ورؤساء الدين ، قد أنهكته أمراض أخرى اشتدت عليه في هذا العصر منشؤها عبادة المادة ، وفوضى الدين والآداب ، وإباحة الفواحش ، ولا علاج له إلا بدواء الإسلام ، وأين يجد وأهله يقلدونه في تلقيع أنفسهم بجميع سموم أمراضه على أمراضهم الأولى .

(٢) راجع في هذا كتاب الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية له رحمه الله ، فقد وفي فيه بوعده هذا ، وهو كتاب لا يستغنى عن قراءته مسلم في هذا العصر . بل قال أحد أولى البصيرة من المسلمين إنه ينبغي قراءته في كل سنة ولومرة واحدة ، وإن قارته ليجد فيه شرحاً لكثير من المسائل المجملة في هذه الرسالة .

٢٠٢ التصديق بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من الدين

بما جاء به ، ونعني بما جاء به ما صرح به الكتاب العزيز ، وما تواتر الخبر به تواتراً صحيحاً مستوفياً لشرائطه ، وهو ما أخبر به جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب عادة في أمر محسوس - ومن ذلك ، أحوال ما بعد الموت من بعث ونعيم في الجنة ، وعذاب في نار ، وحساب على حسنات وسيئات وغير ذلك مما هو معروف .

ويجب أن يقتصر في الاعتقاد على ما هو صريح في الخبر ولا تجوز الزيادة على ما هو قطعي بظني . وشرط صحة الاعتقاد أن لا يكون فيه شيء يمس التنزيه وعلو المقام الإلهي عن مشابهة المخلوقين فإن ورد ما يوهم ظاهره ذلك في المتواتر ، وجب صرفه عن الظاهر إما بتسليم الله في العلم بمعناه مع اعتقاد أن الظاهر غير مراد أو بتأويل تقوم عليه القرائن المقبولة (١) .

(١) الواجب أن يحمل الخبر على معنى يتفق مع التنزيه الثابت بالنقل والعقل تدل عليه أساليب اللغة . مع العلم بأن كل ما وصف الله تعالى به نفسه قد جاء بالكلام الذي وضعه الناس لخلقهم ؛ فهو كاصطلاحات العلوم والفنون ، فلا يقتضي أن يكون معناه في وصف الله تعالى عين معناه في وصف الخلق من كل وجه ، بل يكفي أن يكون مناسباً له ، فعمل الله وقدرته وكلامه ورحمته ووجهه وغضبه ، ليست من الأحوال والأعراض النفسية ، ويده وأصابه ليست من الجوارح الجسمية ، وخلقهم ورزقه واستواؤه على عرشه ليس من الحركات البدنية ، وليست معانيها مخالفة لمذلولها بالكلية ، وهذا معنى قول السلف : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، ومنه مسألة الرؤية الآتية ، وقاعدتهم في ذلك أن نصفه تعالى بما وصف به نفسه ، بغير تعطيل ولا تمثيل ولا تأويل كما تقدم في الكلام على الصفات .

حكم أخبار الآحاد وشروط تأويل النصوص ٢٠٣

أما أخبار الآحاد فإنما يجب الايمان بما ورد فيها على من بلغته وصدق بصحة روايتها . وأما من لم يبلغه الخبر أو بلغه وعرضت له شبهة في صحته وهو ليس من المتواتر فلا يطعن في إيمانه عدم التصديق به والأصل في جميع ذلك أن من أنكر شيئاً (١) وهو يعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم حدث به أو قرره فقد طعن في صدق الرسالة وكذب بها ، ويلحق به من أهمل العلم بما تواتر وعلم أنه من الدين بالضرورة ، وهو مافى الكتاب وقليل من السنة في العمل (٢) من اعتقد بالكتاب العزيز وبما فيه من الشرائع العملية وعسر عليه فهم أخبار الغيب على ما هي عليه في ظاهر القول وذهب بعقله إلى تأويلها بحقائق يقوم له الدليل عليها مع الاعتقاد بحياة بعد الموت وثواب وعقاب على الأعمال والعقائد ، بحيث لا ينقص تأويله شيئاً من قيمة الوعد والوعيد ولا ينقص شيئاً من بناء الشريعة في التكليف ، كان مؤمناً حقاً وإن كان لا يصلح اتخاذه قدوة في تأويله (٣) فإن الشرائع الإلهية قد نظر فيها إلى ما تبلغه طاقة العامة لا إلى ما تشتهي عقول الخاصة ، والأصل في ذلك أن الايمان هو اليقين في الاعتقاد بالله ورسوله واليوم الآخر بلا قيد في ذلك إلا احترام

(١) أى من أمر الدين الذى هو موضوع الرسالة والتبليغ عن الله تعالى
(٢) أكثر السنن المتواترة هى العملية كصفة الصلاة والحج ، وأما الأحاديث القولية المتواترة ، فقيل : إنها لا تبلغ أقصى جمع القلة .

(٣) يعنى أن التأويل بهذه الشروط لا يتنافى صحة الاسلام ، فلا يباح تكفير صاحبه إلا أنه لا يقتدى به فيه ، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة

ما جاء به على ألسنة الرسل .

بقيت علينا مسألتان وضعتا من هذا العلم في مكان من الاهتمام وما هما منه إلا حيث يكون غيرها مما أجملنا القول فيه (الأولى) جواز رؤية الله تعالى في الآخرة . (والأخرى) جواز وقوع الكرامات وخوارق العادات من غير الأنبياء : من الأولياء والصديقين .

أما الأولى : فقد اشتد فيها النزاع ثم انتهى إلى وفاق بين المنزهين لا مجال معه للتنازع ، فإن القائلين بجواز الرؤية من أهل التنزية متفقون على أن الرؤية لا تكون على المعبود من رؤية البصر المعروفة لنا في مجرى العادة . بل هي رؤية لا كيف فيها ولا تحديد ، ومثلها لا يكون إلا يبصر يختص الله به أهل الدار الآخرة ، أو تتغير فيه خاصته المعهودة في الحياة الدنيا " وهو ما لا يمكننا معرفته ، وإن كنا نصدق بوقوعه متى صح الخبر ، والمنكرون

(١) الإدراك في الحقيقة للروح ، وإنما الحواس آلات لها ، وقد ثبت بالتجارب القطعية لدى علماء الشرق والغرب في هذا العصر . أن من الناس من يبصر ويقرأ ، وهو مغضض العينين ، فيما يسمونه قراءة الأفكار . ويبصر بعض الأشياء دون بعض في العمل النومي ، ومنهم من يبصر الشيء مع الحجب الكثيرة ، والبعد الشاسع ، كن أبصر وهو بمصر قريبه في الإسكندرية خارجا من داره إلى المحطة - إلى آخر ما تقدم في حاشية ص ١١٣ فإذا كان هذا قد ثبت في هذا العالم على خلاف المؤلف في الرؤية لكل الناس - فهل يليق بما قل أن يستشكل ما هو =

الخلاف في جواز كرامات الأولياء ووقوعها ٢٠٥

لجوازها لم ينكروا انكشافا يساويها ، فسواء كان ذلك بالبصر غير المعهود أو بجاسة أخرى فهو في المعنى يرجع إلى قول خصومهم ولكن منى الإسلام يقوم يحبون الخلاف والله فوق ما يظنون .
وأما الثانية : فأنكر جواز وقوع الكرامات أبو إسحق الأسفرايني من أكابر أتباع أبي الحسن الأشعري^(١) . وعلى ذلك المعتزلة ، إلا أبا الحسين البصري فقال يجوز وقوعها . وعليه جمهور الأشاعرة . واستدل الداهيون إلى الجواز بما جاء في الكتاب من قصة الذي عنده علم من الكتاب الولادة في خبر بلقيس من إحضاره عرشها قبل ارتداد الطرف ، وقصة مريم عليها السلام وحضور الرزق عندها ، وقصة أصحاب الكهف .

واحتج الآخرون بأن ذلك يوقع الشبهة في المعجزات . وأولوا ما جاء في الآيات : أما أن ذلك يوقع الشبهة في المعجزات ، فليس

== أغرب منه . وأبعد عن المألوف في الجنة . وهي من عالم الغيب المخالفة سنته ونواميسه لعالم الشهادة ، وهل كان استشكال منكرى الرؤية إلا بسبب قياس عالم الغيب على عالم الدنيا في الرؤية والمرئى ؟ وهو قياس باطل وبطلانه في المرئى أظهر ، وقد حررت هذه المسألة في تفسير المنار بتفصيل أثرى سلفى عصرى طويل فيراجع في تفسير الآية ١٤٣ من سورة الأعراف ص ١٢٢ - ١٧٨ ج ٩ تفسير .

(١) وكذلك الحلبي من أكابرهم .

بصحيح ، لأن المعجزات إنما تظهر مقرونة بدعوى الرسالة والتبليغ عن الله تعالى ولا بد أن تكتنفها حوادث تميزها عما سواها . وأما ما احتج به المجوزون من الآيات فلا دليل فيه . لأن ما في قصة مريم وآصف (١) قد يكون بتخصيص من الله تعالى لوقوعه في عهد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولا علم لنا بما اكتنف تلك الوقائع من شئون الله في أنبياء ذلك العهد إلا قليلا .

وأما قصة أهل الكهف فقد عدها الله من آياته في خلقه ، وذكرنا بها لنعتبر بمظاهر قدرته ، فليست من قبيل ما الكلام فيه من عموم الجواز . فصار البحث في جواز وقوع الكرامات نوعا من البحث في متناول همم النفوس البشرية وعلاقتها بالكون الكبير ،

(١) قال بعض المفسرين في تفسير (قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) إنه وزير لسليمان اسمه آصف ابن برخيا ، فخارهم المؤلف في ذلك تنزلا ، ولكن هذا لم يثبت في قرآن ولا حديث مرفوع ، وإنما هو من الإسرائيليات ، وقال بعضهم . إنه سليمان نفسه ، ورجحه النيسابوري ، وقال بعضهم . إنه جبريل ، وبعضهم إنه ملك آخر . وجملة القول . أن إحضار العرش معجزة لنبي الله سليمان عليه السلام لا حجة فيها على مسألة الكرامات .

كذلك ما قالوه في مسألة الرزق عند مريم ، وأنه كان فاكهة الصيف في الشتاء وعكسه ، لم يصح فيه حديث مرفوع فهو من الإسرائيليات كما بينته في تفسير المنار .

وفي مكان الأعمال الصالحة وارتقاء النفوس في مقامات الكمال من العناية الإلهية وهو بحث دقيق قد يختص بعلم آخر .

وأما مجرد الجواز العقلي وأن صدور خارق للعادة على يد غير نبي مما تتناوله القدرة الإلهية فلا أظن أنه موضع نزاع يختلف فيه العقلاء ، وإنما الذي يجب الانتباه إليه هو أن أهل السنة وغيرهم في اتفاق على أنه لا يجب الاعتقاد بوقوع كرامة معينة على يد ولي لله معين بعد ظهور الإسلام ، فيجوز لكل مسلم بإجماع الأمة أن ينكر صدور أى كرامة كانت من أى ولي كان ولا يكون إنكار هذا مخالفاً للشيء من أصول الدين ولا مائلاً عن سنة صحيحة ولا منحرفاً عن الصراط المستقيم . اللهم إلا أن يكون مما صح في السنة عن الصحابة . أين هذا الأصل المجمع عليه مما يهذى به جمهور المسلمين في هذه الأيام حيث يظنون أن الكرامات وخوارق العادات ، أصبحت من ضروب الصناعات ، يتنافس فيها الأولياء ، وتتفاخر فيها همم الأصفياء^(١) وهو مما يتبرأ منه الله ودينه وأوليأؤه وأهل العلم أجمعون

(١) بل يزعمون أن هؤلاء الأصفياء ، ولا سيما الموقى المشهورين كالذين يسمونهم الأقطاب الأربعة هم المتصرفون في شئون العالم كله مع الله وأنهم يقضون حاجات الذين يدعونهم من دون الله بالخوارق الممنوحة لهم من تقع وضر وغير ذلك ! (لا إله إلا الله وحده لا شريك له) .

خاتمة

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، ونمكّن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدّلهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدونني لا يشركون بي شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) وقد فر الكفر في هذه الآية بكفر النعمة .

(وأنا لما سمعنا الهدى أمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا * وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا * وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا * وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا * لنفتنهم فيه ، ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا * وأن المساجد لله فلا تدع مع الله أحدا * وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا * قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحدا * قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا * قل إني أن يجبرني من الله أحد ولن أجد

من دونه ملتصدا * إلا بلاغا من الله ورسالاته ، ومن يعص الله -
 ورسوله ، فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا * حتى إذا رأوا ما يوعدون
 فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا * قل إن أدرى أقرب
 ما توعدون أم يجعل له ربي أمدا * عالم الغيب فلا يظهر على غيبه
 أحدا * إلا من ارتضى من رسول ، فإنه يسلك من بين يديه ومن
 خلفه رصدًا * ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بها لديهم
 وأحصى كل شيء عددا) .

صدق الله العظيم ، وبلغ رسوله الكريم ، وخشيء الشيطان
 الرجيم ، وحق الشكر لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم .

{ تمت }

المحتويات

صفحة

٣	تأليف هذه الرسالة وسببه
٥	تعريف علم التوحيد وموضوعه وتسميته
٦	تاريخ علم العقائد ومنهج القرآن فيه
٨	سنن الله في الخلق وتآخى الدين والعقل في الإسلام
١٠	فهم العقائد في زمن الخلفاء وحدث الفتن
١١	مبدأ ظهور البدع في العقائد والخلافة ، عبد الله بن سبأ
١٢	اقسام المسلمين إلى ٣ فرق وغلو الخوارج والشيعة
١٤	مبدأ الاشتغال بعلم الكلام . ظهور المعتزلة
١٦	تفرق المعتزلة وتأييد العباسيين لهم
١٦	بث زنادقة الفرس الاتحاد وقتنة القول بخلق القرآن
١٨	ظهور الباطنية دعاء الإلحاد
١٩	الاشعرى ومذهبه وطريقة أئمة أنصاره
٢٠	مذاهب الفلسفة في الاسلام
٢١	ضرر مزج الفلسفة والعلوم الدنيوية بالدين
٢٢	سبب خلط علم العقائد بالفلسفة وضعف العلم في الاسلام
٢٣	الاصلاح الديني الذي جده ابن تيمية وابن القيم
٢٤	الدين الاسلامي والعقل والغاية من علم التوحيد
٢٥	أقسام المعلوم : الواجب العقلي والممكن والمستحيل
٢٦	حكم المستحيل وهو أمر فرضي أو اعتباري لاحقيقة له
٢٧	حكم الممكن . كونه لا يوجد إلا بسبب والعلة الموجودة والفاعلة

صفحة

- ٣١ وجود الممكن يقتضى بالضرورة وجود الواجب
- ٣٢ أحكام الواجب — القدم والبقاء ونفى التركيب
- ٣٣ رأى المؤلف فى الحقيقة العقلية والجوهر الفرد
- ٣٤ صفة الحياة تعريفها ودليل انصاف الواجب بها
- ٣٦ صفة العلم
- ٣٨ أدلة علم الله الوجودية ومخالفته لعلوم خلقه
- ٤٠ صفة الإرادة
- ٤١ صفة القدرة — الاختيار
- ٤٢ الوحدة
- ٤٥ الصفات السمجية التى يجب الاعتقاد بها
- ٤٦ كلام الله تعالى وسمعه وبصره
- ٤٩ كلام فى الصفات إجمالاً
- ٥١ عجز الإنسان عن معرفة كنهه الخالق
- ٥٣ جملة ما يجب العلم به من صفات الله
- ٥٤ أفعال الله جل شأنه
- ٥٥ مسألة المصلحة فى أفعال الله ومعنى الحكمة
- ٥٧ الدليل على حكم الله فى أفعاله
- ٥٨ وجوب الحكمة وتحقيق الوعد والوعيد
- ٥٩ تسمية حكمة البارئ علة وغاية وغرضاً
- ٦٠ أفعال العباد

صفحة

٦٢	سر القدر المنتهى عنه
٦٢	حقيقة الشرك والتوحيد
٦٥	علم الله بعمل العبد الاختيارى ليس ملزما
٦٧	حسن الأفعال وقبحها
٦٨	جمال المحسوسات والمعقولات وقبحها
٧٠	الحسن والقيبح بمعنى اللذيد والضار
٧١	المؤلم الحسن واللذيد المستقبح فى نظر العقل
٧٢	تمييز العقل بين الفضيلة والرذيلة والخير والشر
٧٣	معرفة واجب الوجود وصفاته الكمالية بالعقل
٧٥	حاجات الإنسان وخوافه وقواه الثلاث
٧٦	اعتدال الذاكرة والنخيلة والمفسكرة وانحرافها
٧٨	تفاوت عقول الناس وما لا تصل إليه وما اتفقت عليه
٨٠	تفاوت العقول وحاجتها إلى هدى النبوة
٨١	النبوة وتمخيدها للعقائد والجزاء وأنواع الأعمال
٨٤	(الرسالة العامة)
٨٦	المعجزة ودلائلها على صدق الرسول وصفات الرسل
٨٧	ما يجب للرسل وما يجوز وما يمتنع
٨٩	قصة آدم ومعنى عصيانه
٩٠	حاجة البشر إلى الرسالة وله مسلكان

صفحة

- ٩٠ المسلك الأول من منازع البشر في الحياة الآخرة
- ٩٢ الإلهام والشعور بالحياة الآخرة
- ٩٤ عجز البشر عن معرفة عالم الغيب مع الشعور به
- ٩٤ مرتبة نفوس الرسل بين عالمي الغيب والشهادة
- ٩٦ حكمة عدم استغناء البشر بغرائزهم عن الرسل
- ٩٧ المسلك الثاني في بيان الحاجة إلى الرسالة يؤخذ من طبيعة الإنسان الاجتماعية ، وما تقتضيه من التنازع والفصل فيه
- ٩٩ المحبة وحاجة الإنسان إليها
- ١٠١ حب البشر للجهاد وتوسلهم إليه بكل وسيلة ولو ضارة
- ١٠٢ حاجة البشر إلى المحبة وإلى العدل
- ١٠٤ شعور البشر بالسلطان الغيبي
- ١٠٥ تصوير خيال البشر للقوة الإلهية وقدرة واجب الوجود
- ١٠٦ عجز البشر عن معرفة ربهم معرفة صحيحة بنظرهم
- ١٠٧ هداية الله للبشر من جهة ضعفهم بالخضوع للسلطان الغيبي
- ١٠٨ هداية الرسل بما وهبهم الله من الخصائص وصفة هذه الهداية
- ١٠٩ (الوحي تعريفه وكونه ممكن الوقوع)
- ١١١ التفاوت الكبير بين درجات العقول والهمم
- ١١٤ تقريب إدراك الرسل للعلم الغيبي بإدراك من دونهم لما يشبهه
- ١١٥ حال أولياته تعالى وشهادته التي تلي حال أنبيائه
- ١١٦ وقوع الوحي والرسالة

صفحة

- ١١٨ صفات الرسل الذين عرفوا بالتواتر
- ١١٩ (وظائف الرسل عليهم السلام)
- ١٢٠ تعاليم الرسل الأدبية والاجتماعية والحقوقية
- ١٢٢ بيان الرسل لأمر الآخرة وعالم الغيب والاستعداد للسعادة
- ١٢٢ ليس من وظائف الرسل تعليم الفنون والصناعات وأمثالها
- ١٢٥ اعتراض مشهور أو الاحتجاج على الدين يسوء حال أهله
- ١٢٦ إصلاح الدين للأمم ما اهتموا به وفسادهم بالغلو أو الابتداع فيه
- ١٢٧ الخشوع والبكاء لوعظ وعاظ الدين دون نصائح الأدب والسياسة
- ١٢٩ تبعة ترك هداية الدين وسبيل الرجوع إليها
- ١٣٠ وظيفة الدين ووظيفة العقل والنسبة بينهما
- ١٣١ (رسالة محمد صلى الله عليه وسلم)
- ١٣٢ حال الأمم والدول والرؤساء مع المرءوسين في عهد البعثة
- ١٣٤ حالة الأمة العربية عند البعثة
- ١٣٥ نشأته صلى الله عليه وسلم وحال قومه
- ١٣٩ تنزيه النبي عن طلب الملك والرياسة بدعوته
- ١٤٠ وصف دخول النبي في طور الرسالة وملخص دعوته
- ١٤٢ دعوته صلى الله عليه وسلم لطبقات البشر في جميع الملل
- ١٤٤ ما قام به (ص) مما يعطى استعداد الشخصى والقوى ويكونه معجزة له

القرآن

- ١٤٥ نزوله في أرقى عصر للبلاغة عند العرب والتحدى به
- ١٤٧ تحديده (ص) العرب بأقصر سورة من القرآن وعجزهم
- ١٥١ الفرق بين إلهام المجدد وحجة إعجاز القرآن
- ١٥٢ تقرير ثبوت النبوة بإعجاز القرآن
- ١٥٣ (الدين الإسلامى أو الإسلام)
- ١٥٤ شكر الله باستعمال نعم الحواس القوى فيما خلقت لأجله
- ١٥٥ إبطال الوثنية ببيان أن السلطان الغيبى لله وحده
- ١٥٧ تحرير البشر من العبودية لغير الله
- ١٥٨ نوط الإسلام جزاء الدارين بالعمل
- ١٥٩ إبطال الإسلام للتقليد وإيقاظه للعقل
- ١٦٠ مزية الأواخر على الأوائل وإطلاق العقل من قيود التقاليد
- ١٦١ تقرير الإسلام لاستقلال الإرادة واستقلال الفكر
- ١٦٢ تعبد أهل الكتاب بالفاظ كتبهم دون فقهها
- ١٦٣ إيجاب الإسلام فهم كتابه على أهله
- ١٦٤ تقرير الإسلام أن دين الله واحد وبيان أصوله
- ١٦٦ حكمة اختلاف العبادات ونحوها في دين الرسل
- ١٦٧ ترقى تعاليم شرائع الأديان بترقى الإنسان
- ١٦٨ النصرانية واليهودية وما ابتدع أهلها فيهما
- ١٧٠ ظهور الإسلام وكونه دين سن الرشد لنوع الانسان

صفحة

- ١٧١ مزايا الاسلام على الأديان
- ١٧٢ منعه الاكراه على الدين وامتنياز الأجناس
- ١٧٣ عبادات الاسلام معقولة الفوائد إلا قليلا من التعبدات
- ١٧٤ حكمة الله في الصلاة والصيام والحج
- ١٧٦ سنن الله في خلق الانسان والأكوان
- ١٧٧ أسباب النعم والنعيم في الأفراد والأمم
- ١٧٨ أسباب حياة الأمم وموتها وسعادتها وشقتها
- ١٧٩ إيجاب التعليم والارشاد العام في الاسلام
- ١٨٠ إيجاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
- ١٨١ الزكاة وحكمها وقوائدها
- ١٨١ حفظ العقل والمال بتحريم الخمر والقمار والربا
- ١٨٣ (انتشار الاسلام بسرعة لم يعهد لها نظير في التاريخ وسيله)
- ١٨٤ تألب الملل على الاسلام وظفر بهم
- ١٨٥ سبب الفتح الاسلامي وسيرة المسلمين فيه
- ١٨٥ العدل والرحمة وحرية الأديان في الاسلام
- ١٨٦ دخول الأمم في الاسلام وتأثير تعاليمه وحملته
- ١٨٧ عدل الاسلام وإزائه امتياز الطبقات
- ١٨٩ روح الاسلام في أهله هو الذي جذب إليه أعداءه
- ١٩١ إبطال دعوى كون الاسلام انتشر بالسيف
- ١٩٢ حروب النصرانية عشرة قرون للاكراه على الدين

منحة

نكبة التار والحروب الصليبية وما استفادته أوروبا من المسلمين ١٩٣

إيراد سهل الإيراد

١٩٦ (الاحتجاج على الاسلام بالمسلمين)

٢٠٠ الجواب عنه بأن الاسلام حجة على تاركى هدايته دون العكس

٢٠١ التصديق بما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وسلم

٢٠٣ ما يعتبر فى الايمان بأخبار الآحاد

٢٠٤ مسألة رؤية الرب تعالى فى الآخرة

٢٠٥ مسألة الكرامات : ومنكروها ومثبتوها وأدلتهم

٢٠٧ ظن عامة المسلمين أن الكرامات كعامل الصناعات

٢٠٨ خاتمة الرسالة

رقم الايداع : ٩٧/٧٥٥١

الترقيم الدولى : I.S.B.N.

977-235-831-x

شركة الأهل للطباعة والنشر

ت : ٣٩٠٤٠٩٦

